آمديو تشنشيني

إلهُ حياتي

تمييز عمل اللّه في حياتي الشخصية

نقله إلى العربية
الأب ألبير هشام نعّوم

بغداد ٢٠١٥

صدر هذا الكتاب باللغة الإيطالية تحت عنوان:

Dio della mia vita

Discernere l'azione divina nella storia personale

© Paoline Editoriale Libri, Figlie di San Paolo, 2007.

مقدمة المترجم

كلّ ما سأقوله عن هذا الكتيّب، لن يوفي حقّه ولن يعوّض عن قراءته كاملاً. إنّه كتابٌ لا غنى عنه للشباب، وللمسؤولين عن تنشئتهم، من الآباء والأمهات ومن منشطيهم في الكنائس. تُلتمس من عمق أفكاره التي يطرحها، جرأةُ المسيحية في اختراق عالمنا المعاصر المعقد والفقير، فيشجّع على الوقوف برأسٍ مرفوع وإعلان المسيح بصوتٍ عالٍ !

أودّ أن أشكر جزيل الشكر، سيادة المطران سعد سيروب، لأنه أعطاني هذا الكتيّب وشجعني على ترجمته. وقد سبق وقام سيادته بترجمة كتابٍ للمؤلف ذاته بعنوان "قلب العالم، مرافقة الشاب نحو مركز حياته" (بغداد ٢٠١٢). وأنا اليوم أهدي هذا الكتاب لسيادته أولاً، مع صلاتي ومحبتي، ولكل شبيبة بغداد الذين أكنّ لهم محبّة خاصّة ولكل الشباب المسيحيين المتعطشين إلى المسيح.

الأب ألبير هشام نعّوم

تقديم

لقد مضى وقتٌ منذُ أن قام منشّطُ الدعوات برحلته التي لا تكلّ عبر العالم، فركض من رعيةٍ إلى أخرى، أو من مدرسةٍ إلى أخرى (في ذلك الوقت لم تكن هناك مشاكل اليوم...) ليحقق قصده مع الأولاد، أو طلاب المدارس الابتدائية أو الثانوية، أو – بصورةٍ أقلّ مع بعض التخوّف – مع شباب الجامعات... كان منشّط الدعوات هذا متميزًا بنوعيته؛ أختاره أساقفة ورؤساء رهبانيات بعد أن توسموا فيه قدرة اتصال، ذوقًا ابداعيًا، روح المبادرة، أسلوبًا شيقًا، حماسًا وعاطفةً، معنى الصداقة، التزامًا قويًا بدعوته، انتماءً لمؤسسته، عدم ازدراء لنوعيات أخرى أقلّ مستوى من البشر كصاحب الوجه الوقح. يملك شجاعةَ كسر الجليد، معنى حقيقيًا للمخاطرة، قدرة تمييز ضيق الشخص، له أكتاف قويّة ليقاوم في الصعوبات، ويتقدّم إلى الأمام حتّى أمام قلّة نتائج عمله، عنادًا ليستمرّ أمام انعدام المسؤولية...

كان يأتي مع عُدّةٍ مختلفة الأدوات: ورق مقوّى، خرائط جغرافية، شريط مصوّر لا غنى عنه للمرسلين الأفريقان، صور تمثّل أوضاعًا أكثر من مأسوية وقادرة بالتالي على

التأثير في الصبي أو الشاب. كان يعيش أيضًا آمالاً وانتظارات، بعضها اتّسمت بالأوهام والاحباط. كان يستطيع القيام بعمله في التنشيط والتشجيع وإثارة الاهتمام والتوجيه على مستوى مثالي وعالٍ من الحياة وبطريقةٍ متقنة، ولكن كلّ شيء كان معلقًا بخيط هزيل: قرار فردٍ مراهق برفضه أو قبوله. كان ينتهي كلّ شيء، في كثير من الأحيان بخيبة أمل، بالنسبة لمن بذل عقله وقلبه وطاقاته وامكانياته ليصبح جسرًا لله الذي يدعو. كان منشّط الدعوات راعيًا لحقل الربّ، ليس من خلال مكان (وهو في كل الأحوال لم يكن مكانًا مناسبًا)، بل من خلال عدم الاتكال المطلق على نتائج عمله. لم يكن لهذا السبب مكئتبًا وبائسًا، بل لأنه أولاً معرّضًا لتناقضاتٍ من جيلٍ وعمرٍ سيكون عملاقًا في السنوات اللاحقة.

من يدري كم واحد منّا "اصطاده" رسلُ الربّ الذي يدعو. في كل الحالات، نعلم كم علينا أن نشكر منشطي الدعوات هؤلاء ونقدّر المتاعب التي تكبدوها، وبضمنها الاحباطات، وهم يعملون لوحدهم عملاً سيمسّ الجميع يومًا.

لا يوجد اليوم مثل هذا النموذج من منشّط الدعوات أو على الأقل ليس بمثل هذه المواصفات؛ ولكن إذا كانت

أزمةُ الدعوات المخرّبة قد محته، فأجبرتنا على تغيير مفهومي تنشيط الدعوة وراعوية الدعوات، فهو بذلك خرج من زاويةٍ كادت أن تكون ضيقة، ومن صورةٍ محدودة وأرضية جدًا تعتمد على منطق الأرقام، ومن تفسيرٍ محدود للدعوة المسيحية.

يبقى أكيدًا أن صورة منشّط الدعوات لم تختفي. ربما خُدِع البعض بفكرة الاستغناء عنها عندما دخلت راعوية الدعوات في كل قسم من الحياة الراعوية، ووسمتها من الداخل دون الحاجة من بعد إلى تدخلات خاصّة من الخارج. لم يكن هكذا، وليس هو كذلك، وأعتقد لن يكون كذلك في المستقبل.

لا زالت الحاجة لشخص منشّط الدعوات موجودة، كما يبقى صحيحًا أن راعوية الدعوات يمكنها ولابدّ أن تصبح دعوة الحياة الراعوية اليوم، أو قد يصبح من الضروري منح صفة الدعوة للحياة الراعوية برمّتها...[1] ونستطيع أن نضيف المزيد من الصيغ والتعابير التي تفصح عن الحاجة الملحّة لجمع هاتين الضرورتين: الاهتمام الخاصّ بتنشيط

[1] Pontificia opera per le vocazioni ecclessiastiche, *Nuove vocazioni per una nuova Europa*, Paoline Editoriale Libri, Milano 1999, 26b.

الدعوات التي لا زالت بحاجة إلى أشخاص مكرّسين حقًا لهذه المهمّة، والتفسير الواقعي والمتطور لكل وجه من الحياة الراعوية على ضوء الدعوات وبحسب كلّ عامل راعوي، أي كل منشطي الدعوات، بدون استثناء أحد، ولكن لابدّ أن يتميّز أحدهم بلا منافس، بقلبٍ مفكّر وعقل منظّم، كمنشط لمنشطين، أو في شبكة منشطين.

من جانب، لا زال من الضروري وجود شخص منشّط للدعوات، ولكنه ضروري في الوقت ذاته أن يقوم كلّ عامل في الحقل الراعوي، وفي أي قسم منه، بتنشيط الدعوات. لأنه إن لم يوجد هذا التنشيط، لن تكون الحياة الراعوية التي تحققه مسيحية.

إن التأمل الذي نقدّمه أدناه يدخل في هذا المنظار، فيقود إلى جانب من الحياة الراعوية وهو النموّ في الإيمان الذي لابدّ أن يكون موضوع اهتمام للجميع لأنه مسيرة تشمل الكلّ، وفيها يملك كلّ مؤمن الحقّ في أن يجد مرشدًا في أخٍ أو أختٍ أكبر منه. وبدوره يقع عليه واجب مرافقة هذه المسيرة وتقديم المساعدة. هذا الجانب، الجماعي والفردي، هو تمييز الدعوة كفنٍ لاكتشاف دعوة الله طول الحياة. لقد دعانا الله في بداية الوجود، وأعطانا الحياة، ومنذ ذلك الوقت لم يكفّ عن دعوتنا كلّ يوم، لأن الله

الذي يدعو لا يمكن إلا أن يدعو، وهو يدعو لأنّه يحبّ. والمسيحي هو المدعو الذي تعلّم اكتشاف سرّ ذلك الصوت يوميًا، لتكون حياته جوابًا دائمًا على ذلك الذي يدعوه بلا انقطاع. ليس جوابًا لله فحسب، بل لتلك الحضارة التي تتحداه اليوم، أكثر من أي وقتٍ مضى، و"تهزأ" بالمسيحي، كما أُهين صاحبُ المزامير في وقته من "مضايقيّ... بقولهم لي النهار كله: أين إلهك؟" (مز ٤٢/ ١١).

إنه استفزازٌ صحيٌ جدًا، بالرغم من أنه مزعج أحيانًا، لأنه يرغم المؤمن على إعطاء الحقّ لرجائه ويترجم إيمانه بمصداقية لكلّ من يمكنه الوصول إليهم، فيجبره على النزول من فوق، من التجريدية ومن غموض بعض النظريات التي تخدش خبراته المعاشة، ليقول إن الإيمان صحيح فقط عندما يتجسّد ويُشخصن (يتجسّد في شخص)، إذا وُلِد من الحياة ويعترف بإلهٍ له وجه ويرافق في المسيرة، ليشهد برجاء غني بالتاريخ والذاكرة، "بتاريخه"، مليء بعلاماتٍ كثيرة من حضور الله. من جانبٍ آخر، إذا كانت الحياة تحملُ توقيع الله، أو منتجًا "موقعًا" من حياته، فليس هناك طريقة لعيش وإعلان الإيمان خارجًا عن التعلّم المستمر على الاعتراف بحضور وفعل الله في حياة الإنسان، كلّ إنسان.

يكمن تنشيط الدعوات انطلاقًا من هذا المبدأ. ولكن الحياة المسيحية تكمن أولاً فيه، وخاصّةً اليوم. وبالتالي هناك حاجة اليوم لمعلمي إيمان، كهنة، مكرّسين ومكرسات، عاملين ومساعدين في حقل الحياة الراعوية، يعرفون تقديم هذه الخدمة بذكاء الإيمان أو حكمة الروح، وبهما يتعلّم المؤمن تمييز مكان الله في الوجود البشري.

سيصبح معلمو الإيمان منشطي دعوات أيضًا وبكلّ معنى الكلمة. بفضلهم يستطيع المؤمن اليوم الإجابة على شكّ كلّ الذين يهزأون بإيمانه، لأنهم لا يعرفون قراءة السرّ الإلهي، فيقولون لهم إنّ الله ليس بعيدًا بل يسكن في حياة الإنسان الأرضية. إنه حيٌ وحاضر لدرجة أنه يدعو الإنسان كلّ يوم ليحقق شيئًا معه، بكلمةٍ حيّة وفعّالة تجعله يترك كلّ شيء ليتبعه "خلاص وجهي وإلهي" (مز ٤٢/ ١٢)!

لذلك، مَن يدري، ربما يبدأ حتّى "المضايقون"، الذين لا يدرون أين هو الله، الإصغاءَ لدعوة الله.

مقدمة

يُعرّف الإرشادُ الروحي، أو المرافقة في دروب الروح، بمسيرة جوهرية يقوم بها المؤمن بمرافقة أخ أو أخت أكبر منه في الإيمان والتلمذة، ويساعده / تساعده في تمييز صوت وفعل الله الذي يدعوه في حياته الشخصية، وفي إجابته بحريةٍ ومسؤولية.

إن طبيعة الدعوة واضحة، فهي لا تعني فقط الاختيار الحاسم في الحياة الذي يُؤخذ عادةً بملئه في عمر الشباب، بل هي التمييز المستمر الذي يقوم به المؤمن المطيع (في معنى كلمة مطيع *ob-audiens* هناك دومًا جهد الإصغاء لله)، الذي يبحث دومًا وفي كلّ مكان عن إرادة الله، ليس بهدف خلق موقف شجاع عند لحظةٍ معينة فحسب، ولكن لغرض الاستعداد المستمر لاكتشاف علامات الله المحبوب للأبد في كلّ لحظة والسلوك وفقًا لها.

يهدف هذا التأمل إلى الإشارة لبعض سمات هذا النوع من المرافقة الروحية، على المستوى النظري والعملي. ويحمل هدفين: مباشر لتنشئة القدرة على تمييز عمل الله في الشاب من خلال أحداث حياته الشخصية والاجتماعية، ولتعلّم الإجابة على دعوة بالملء وبحسب روح الإنجيل،

وبنضوج وشمولية في الخيارات اليومية. أمّا الهدف النهائي فهو مساعدة كلّ مسيحي يعيش دعوته ليكون شاهدًا للرجاء في العالم كما في الكنيسة، فيُعرَف عملُ الله من الجميع كفعل حبٍ موجّه للكل.

هناك إذًا سلسلة من الارتباطات، كما سنرى، تربط الماضي بالحاضر، الإيمان بالرجاء، التاريخ بالذاكرة، الحدث الشخصي بقصّة الخلاص، الكنيسة بالعالم...

سنذكرُ في البداية باختصار بعض المبادئ النظرية اللاهوتية لنقدّم بعدها بطريقةٍ معمّقة، في الجزء الثاني، طريقةً عملية لمرافقة هذه المسيرة الطويلة من التمييز.

أين يسكنُ اللّه؟

سنذكر هنا بعض المبادئ اللاهوتية الأساسية المفيدة لموضوعنا، حول معنى حضور الله المتسامي ومكان سكناه وإمكانية تمييز عمله في حياتنا. ولكل جانب من هذه الجوانب نتيجة محددة على المستوى العملي والتربوي.

"إلهُ حياتي" (أي الحياة الشخصية كسبيلٍ وحيد لمعرفة اللّه)

تولدُ المرافقة الروحية من رغبة المؤمن الصادقة في البحث عن الله وعن آثاره في حياته الشخصية. ولهذا يبحث عن المساعدة في مؤمنٍ آخر، لأنه يعي صعوبة وتعقيد البحث، بينما يريد من جهةٍ أخرى القيام بمسيرةٍ صادقة في التمييز من دون الانحراف في خطر خداع نفسه.

فموضوع البحث والهدف النهائي للمسيرة هو الله، أو حضوره وعمله، وليست حياة المؤمن الشخصية أو القرار الذي عليه اتّخاذه أو أي نقطة مرجع هي علامات حضوره، ولا المسيرة الشخصية نحو الكمال. صحيح أن كلّ هذه

مفيدة كجواب شخصي، ولكن مَن يرافقه شخصٌ آخر يدرك أنه يبحث عن الآخر السامي (الله)، لتجنب روح الذاتية المضللة.

ويعلم المؤمن، في الوقت ذاته، أنّ هذا البحث لن يحمله بعيدًا عن نفسه، بالعكس؛ هو طريق "ليجد نفسه"، لذلك لا يمكن القيام به في أي "مكانٍ" آخر إن لم يكن في حياته الشخصية.

من ناحيةٍ أخرى، هذا هو جديد المسيحية الاستثنائي، إنه شريعة التجسد، يعلن بقوتها كلُّ إنسان حقيقة الحبّ الأبدي، لا بل يجسّده ويجعله تاريخًا وجسدًا، وجهًا ونظرةً، كلمةً وامتدادًا، سرًا وعلنًا. إنّه كشف متجدد غير معلن، لأن الموضوع هو الحبّ ذاته، ولكنه مُدرك ومتجسّد في الشخص المحبوب، على مقياسه بالضبط، ولا يُتوقع وجوده بدون هذا الشخص.

ونضيف أن إمكانيتنا الوحيدة لمعرفة الله أُعطيَت لنا في الواقع من وجودنا الفريد، من التعبير غير المتكرر عن قصّة حبّه التي تتكشف في الزمن ولكنها تتجه نحو الأبدية، ويغني قصّة الله التي يرويها عددٌ هائل من البشر،

كلٌّ منهم يعبّر عن جانب متميز وفريد ولا يتكرر من الآب الذي خلقنا متميزين وفريدين ولا نتكرر.

تجدُ أصالة وجودنا الشخصي جذورها هنا. ليس لله أحدٌ غيري، شخصي وتاريخي، ليعبّر عن طريقته في حبّ شخصٍ مثلي. إنّها طريقة أصيلة وجديدة، فأيامي الأرضية تكتبُ قصّة الله وحبّه، قصّة جديدة للغاية عن أمرٍ لم يحدث أبدًا من قبل ولا يمكن أن يتكرر بأي شكلٍ من الأشكال، فسنواتُ حياتي تعبيرٌ عن حبّ ذلك الذي هو خارج الزمن، ولكنه صار زمنًا وتاريخًا، متّخذًا شكل ولون أكثر مخلوقاته محدوديةً وصغرًا!

نتكلم هنا، لمَن يريدُ حقًا أن يصبح مؤمنًا، عن تعلّم كيف يعبّر الله عن نفسه في حياة المؤمن الشخصية. أمرٌ لا يمكن حسابه بالأرقام، ولا حصره بمجرّد تعليم إيماني كما يُعطى اليوم. وأعتقد أنه المعنى الأصيل والحقيقي للإيمان على المستوى سواء الكتابي اللاهوتي أو النفسي التربوي، والمعنى الحديث أيضًا الذي يجب أن يؤسس النموذج الحالي لتعليم الإيمان لشبابنا[٢].

[٢] في هذا المنظور راجع تأملين حول عالم تربية الشباب:
A Cenceni, *Il mistero da ritrovare. Itenario formativo alla decisione vocazionale*, Paoline Editoriale Libri,

الموضوعية والذاتية (أي الذاتية الشخصية كمكانٍ تتجسّد فيه موضوعية الإيمان)

يوجدُ في فعل الإيمان عادةً، أو يجب أن يوجد، ترابط بين الموضوعية والذاتية: حيث يؤمن الشخص بحقائق أوحاها الله وكشفتها كلمته، وتعرضها الكنيسة على الشعب المؤمن برمّته ويُطالب بالالتزام بها فيعيشها ويطبقها ويشهد لها. إنها حقائق موضوعية تسري على الجميع، والكلّ مدعو ليوافق حياته معها.

إنه منهاج المؤمن، أو حيويته عندما يكون الإيمان موجودًا ومندفعًا. ولكن هذا المنهاج، بالنسبة لكثيرين، وقع اليوم في أزمة، لأنه يفتقر إلى القدرة على طرح ما هو جديد، وخاصّةً أمام الأجيال الجديدة التي تشهدُ انفصالاً بين الحقائق الموحاة وتأثيرها في الحياة اليومية، فلا يشعرون أنفسهم مشتركين في حيوية الإيمان هذه، ولا يلاحظون تجاوبها مع احتياجاتهم، ويشعرون أن الله بعيد... لديهم الحقّ، في نهاية الأمر، أو على الأقلّ يُفهم شعورهم من ناحية البُعد العاطفي بين محتوى الإيمان وما

Milano 1997, e *La storia personale, casa del mistero. Indicazioni per il discernimento vocazionale*, Paoline Editoriale Libri, Milano 1997.

يُعاش يوميًا، بين العبادة والحياة. وفي هذا المنظور، يأتي دور البُعد الذاتي (أو الشخصي) للمؤمن كتثبيت لسلوكه الإيماني فقط، ولحظة طاعة حقيقية له. فيأتي دوره فقط في المرتبة الثانية وبمعزل تقريبًا عن الموضوع كلّه كونه أقلّ أهمية ولا يضيف شيئًا على خبرة الإيمان. إن الإنسان مدعو للإيمان ولاكتشاف مضمون الوحي في حياته الشخصية ويترجمه إلى سلوك، مثل وصية، لأن هذا المضمون ملزم، يأتي من الله ويكشف وجهه.

كلّ ذلك صحيح، ولكنه غير كافٍ لتأسيس إيمانٍ ناضج وحرّ ومسؤول، إيمان تتحول فيه حياة الإنسان إلى مكان يأخذ فيه هذا المضمون الموضوعي للإيمان شكلاً ذاتيًا وجديدًا. بهذه الطريقة، يصبح هذا الوحي الأساسي، الذي لن يزال سليمًا ومعيارًا لتفسير ما يُعاش، حيًا وخافقًا ويتّسم بملامح أصلية ويتشخصن بطريقةٍ أو بأخرى بحيث يشعر المؤمن أنه ملكه ومنبع يعطي المعنى لحياته، وليس من بعد مجرّد حقيقة مجرّدة تتوافق مع وجود الجميع. وتكتسب الحياة بدورها كرامةً وقيمةً جديدتين، مكانًا لاهوتيًا حقيقيًا وخاصًّا، ومكانًا للوحي أيضًا عندما تدخل حقيقته في حوار مع الإنسان، وتؤسس علاقة أصيلة تمامًا مع شخصه، فتتكشف بطريقة غير مكررة. بهذا المعنى، تصبح

حياة كلّ كائن بشري وحيًا يكشف جزءًا صغيرًا وأصيلاً من الوحي أو التاريخ غير المنتهي لوحي الله عن ذاته.

إنّه في العمق ذات المنظور في الكتاب المقدس، به كان التقيّ اليهودي مدعوًا للنظر إلى وجوده وانتمائه لشعبٍ يرى في عمق أحداث وجوده خطوات ذلك الإله الذي أبدع الطرق والامكانيات كلّها ليلتقي به ويكشف له عنه حبّه ووجهه، ويكون معروفًا دومًا لديه كإلهٍ غني بالرحمة ومختلف عن آلهة الشعوب القريبة. كان شعب اسرائيل يبحث ويجد، في حياته الشخصية وليس في مكانٍ آخر، آثار إلهه والدلائل على حبّه. فيؤمن وهو يتذكّر ويتذكّر وهو يؤمن. ومن هنا، كما نعلم، تأسست الليترجيا وانبثقت الأعياد "كي لا ننسى" كأفرادٍ وكشعب. وهي الوصية الأساسية التي كررها موسى: "واذكُرْ كلّ الطريق التي سيّركَ فيها الربُّ إلهُك في البرّية هذه السنين الأربعين" (تثنية الاشتراع ٨/ ٢)، كي لا ينسى اسرائيل ما "شاهدته" أعينه (راجع تثنية الاشتراع ١١/ ٣-٧)... إنّ فقدان ذاكرة التاريخ دفعَ اسرائيل إلى الوثنية وصنع عجل الذهب الذي لا يمتّ بصلة مع وجوده، لا بل لم يفعل له شيئًا. وصنع أصنامًا لها فم وأيد وأقدام، ولكنها لا تتكلم ولا تمشي.

ومن وجهة نظر نفسيّة، يرى كلٌّ منّا كيف أن هذا المنظور بحدّ ذاته أكثر اقناعًا والحاحًا من الآخر، وأنّ الخبرة الشخصية أكثر اقناعًا والحاحًا مقارنةً بالنظرية والأحاديث المجرّدة، وخاصّة في حضارة كحضارتنا المعاصرة حيث، بالرغم من تناقضاتها المتعددة وغموضها، هناك تأكيد ومطالبة بمركزية وأصالة الأنا كموضوع "مجرّب"، ضدّ أيّ استقلال وأيّ نوع من العقلية الاستنتاجية، وحتّى ضدّ صيغ التدّين "التقوية".

الماضي والمستقبل (الخبرة كمكانٍ للتمييز)

أصبح الدخول تدريجيًا في المنطق الذي أشرنا إليه لا غنى عنه، وهو تحويل الانتباه إلى الخبرة الذاتية. فمن يطلب مرافقة شخص ليميّز دعوته، سيهتمّ بحاضره أو بمستقبله، لا بل سيمتدّ عالمه الداخلي كلّه نحو الغد ونحو القرار الذي سيتّخذه. من المستحيل كمؤمنين فهم مشروع الخالق لخليقته، دون التدقيق باهتمام في حياة الخليقة ذاتها والبحث عن خطى الله فيها.

نستطيع اعتبار هذا المبدأ أساسيًا في مسيرة مرافقة الدعوة: حياة الإنسان أكثر أهمية من تصريحاته، وحتّى من

إرادته ذاتها في تكريس نفسه للربّ. ليس فقط لأن "الاختيارات الأصيلة تولد حصريًا من الواقع أكثر من الرغبات أو النوايا، وإن كانت حميدة وصادقة وطيبة"[٣]، بل لأن مشروع الله ذاته ليس ارتجاليًا أبدًا، بل يحتضن كل الوجود من بداياته، يضمّ كل الحياة، يختفي ويُعرف في قلب الوجود ذاته، ويُبان أكثر من مظاهر الحقائق العارية.

يصبح الاهتمام بخبرة الحياة معيارًا ونموذجًا للبحث عن الدعوة، أو يساعد بالعموم في تمييزها كمشروع الله. ليس هذا فحسب، فالجانب الأهمّ هو أن الشاب ذاته يُنشّأ تدريجيًا على قراءة ثمّ على كتابة حياته من وجهة نظر الله، وهذا الجانب أكثر أهمية من نجاح غيره في تمييز علامات دعوته في حياته ليقرر بعدها ويتشجع ليختار شخصيًا وفق مشروع الله، أو يترك لله أن يختار له.

إنّ المرافقة الأصيلة على طرق الروح هي بالضرورة مرافقة مسيرة دعوة، كما أن كلّ حياة راعوية مسيحية حقيقية (كل ليترجيا، تعليم مسيحي، موعظة، احتفال بكلمة الله،...) تقع ضمن راعوية الدعوات. ليس فقط عندما يركّز العمل الراعوي على تمييز الدعوات، فيعتقد أن واجبه قد

[3] F. Tata, *Criteri vocazionali*, in *Testimoni* 7 (2006) 12.

انتهى عندما يميّزها (الأمر الذي يتمّ لمرةٍ واحدة عندما يختار دعوة حياته)، بل يهدف لجعل المؤمن يعيش إيمانه بحسّ المسؤولية، أي يقرأ أولاً في حياته، في كل لحظاتها، علامات حضور أو دعوة الله، ليجيب بعدها بحرية ومسؤولية كنتيجة طبيعية لتلك القراءة، لأنها ضمّت مسبقًا حياته. وبهذه الطريقة، من بين أمورٍ أخرى، يولدُ الرجاء ويتمّ اختيار الدعوة الأصلية بناءً على الرجاء[٤].

تُفهم المرافقة في كثير من الأحيان بصورةٍ مختزلة، وكأنها موجّهة مباشرةً وحصريًا نحو اختيار الدعوة، أو أنها ثمرة قرار يُتّخذ دون أن ينبع من قراءة الحياة، فيصبح قرارًا مدفوعًا أكثر من كونه طبيعيًا، الأمر الذي يجعل المرافقة تنحرف نحو خطر الوقوع. ومن المحتم أن تقع، لأنه إذا فُسّرت مرافقة الدعوة بطريقةٍ مختزلة كهذه، يولد الشكّ بأنّها مثيرة للاهتمام (أو بضاعة كما يقول أحدهم)، وهي في الحقيقة غير فعّالة وقليلة الاقناع وصعبة الوصول إلى

[٤] بحسب يوحنا الصليبي: "يكمنُ الإيمان في الفهم، الرجاء في الذاكرة، والمحبة في الإرادة". الرجاء الذي يوجّهنا نحو المستقبل يمدّ جذوره في الذاكرة، لأن خبرات الماضي هي قاعدة نسند عليها ثقتنا بالمستقبل. ليكون لنا رجاء قوي، لابدّ من امتلاك ذاكرةٍ قوية.

النجاح بنيّة أن تنجح، وإن كانت لا تزال مبنية أولاً على تفسير جزئي وفقير لحياة المؤمن ولعناصرها الأساسية.

الكساح الانثروبولوجي[٥] وأزمة الدعوات (أي أزمة الإنسان والمؤمن)

أعتقد أن المشكلة اليوم تكمن في ما نسميها "الأساسيات"، أي تلك العمليات والعناصر الأساسية الضرورية للقيام باختيارٍ إيماني أصيل. فكما أن تعلّم القراءة والكتابة أساسي في حياة كل كائن بشري ليكون قادرًا على اتّخاذ قرار، من الأساسي بذات الدرجة أن يتعلّم المؤمن "قراءة وكتابة" إيمانه ليقرر دعوته. لا بل أن التعلّم الأول (على المستوى الانثروبولوجي) هو في أساس الثاني (المتعلق بالمؤمن). ولكن لأن التعلّم الأول في أزمة، بسبب جهل عام وغريب، لابدّ أن ننتظر من أنفسنا جهلاً روحيًا موافقًا لذلك الأول.

[٥] الانثروبولوجيا هو علم الإنسان الذي يدرس سلوكه ككائن طبيعي واجتماعي وحضاري (المترجم).

وصلنا اليوم إلى أزمة ليست متعلقة بجهد الإيمان الأساسي أو بالقيام باختيار مسيحي، بل إلى عمق أزمة انثروبولوجية متعلقة بالإنسان ذاته وبقدرته على استثمار قدرته بكرامة وتقييم ذاته في إيجابيتها (أي قدرته على القراءة)، ليميّز طريقة أصلية وحاسمة لتحقيقها دون انسياق وراء الجمع (أي دون القدرة على الكتابة أو التعبير عن ذاته)، ويتحمّل المسؤولية من خلال قرارات موافقة. من لا يفعل هذا بوعي يمكننا اعتباره جاهلاً.

إنها أزمة الإنسانية التي تنتج نوعًا من الكساح الانثروبولوجي المُلاحظ بأسى في تلك الكآبة الحادّة التي جعلت حياة أناسٍ كثيرين مرّة وغير مقنعة، وفي بحث مستمر عن تعويضات تغذّي بعض الأوهام أو عن العبادة الغريبة للتقنية التي تعد بتجاوز كل محدودية أو عائق وامتلاك العالم كلّه. ولكن هذه الأزمة، فيما يخصّنا، ملاحظة جدًا في ذلك الموقف الانهزامي الذي يتّسم به كثيرون من الشباب أمام الحياة ومستقبلهم، في الخوف من أخذ إنسانيتهم على محمل الجدّ لينجذبوا من الله الذي يكافئ بالملء، والتعامل مع حاجاتهم الأكثر واقعية من الحقيقة والجمال والطيبة. ويتحوّل هذا الموقف فيما بعد إلى عجز الشاب للقيام بخيارات حاسمة، ليراهن على مستقبله،

ويطلب الأفضل من نفسه، ويترك ذاته لشخصٍ آخر يحبّه ويكون محبوبًا من قبله.

نعيش اليوم في مجتمع مقفول، كما يُقال، في عالمٍ متوقف لا يتقدم، حيث الإنسان مجمّد وواقف لا يعرف أن يقرر من بعد، لأنه يوهم ذاته بعدم حاجته للاختيار. وإذا اختار فيعني أنه يفضّل شيئًا على آخر، أي بمعنى التنازل. ولكن لم يعد من الضروري اليوم الحرمان من شيء للحصول على آخر. يمكن اختيار كلّ شيء، أو يُترك في كلّ اختيار بابٌ مفتوح للطوارئ أو للأمان، في حالة بدا الأختيار متعِبًا ويحمل مشاكل لأي سبب. في النهاية، لا حاجة لوضع الحدود القديمة على مسيرة الوجود، لأنه يمكن أختيار شيء دون فقدان نقيضه على الاطلاق. إذا أتزوجك، سأستطيع غدًا تركك إذا لم أجدك مناسبًا أو إذا جذبني (أو جذبتني) شخص أكثر منك، إذا مارستُ الحبّ معك فلا يعني بالضرورة أني اخترتك، بل قد يكون فقط أمرًا لطيفًا (عادةً ما يكون كذلك) وتوافقيًا (في أفضل الحالات) مع مرور الوقت. وإذا حبلتُ من خلالك فلا يوجدُ مشكلة في اللجوء إلى مختص "إنهاء الحمل"، لمن لا يخاطر أو يريد إخفاء الاختيار أو عدمه...

إنّ القدرة مع انعدام الوعي يجعلان الاختيار صعب التحقيق، وهي قدرة مرتبطة بأزمة القراءة والكتابة في هذا العالم الغريب الذي فيه يبكر حتّى الأطفال في القدرة على القراءة (تخنقهم محفزات منظورة وتغريهم، وبضمنها تلك الاعلانات الغبية)، لا يعرف مراهقون وشباب الكتابة فخسروا أو لم يذوقوا أبدًا طعم الكتابة (يعرفون فقط الكتابة على الانترنت وليس الكتابة الحقيقية، كتابة رسائل قصيرة سخيفة بلا عمق، مكررة وبلا معنى)، بينما يخاف الناضجون – نصف جاهلين – من الاختيار، فيتبعون التيار ولا يضعون مشروعًا، بل يخضعون للحياة ببساطة.

من المحتم أن تمسّ هذه الأزمة معنى الإيمان ذاته وانعكاسه على الحياة، وتجعل المؤمن الطموح يشكّ في قدرة الإيمان، وغير متيقن تجاه مسائل إيمانه الجوهرية: ماذا وأين وكيف يؤمن (المكان والموضوع وكيفية الإيمان)، يشكّ في إمكانية عيش الإيمان كتعبير عن الحرية والمسؤولية وعن ملء الإنسانية.

إنها أزمة جذرية نعيشها اليوم، ليس تقلص الدعوات إلاّ جانبًا من بين جوانبها الأخرى، كنتيجة حتمية تنعكس على القدرة (أو عدم القدرة) على القرار بالعموم. وهي أزمة كل الدعوات لأنها أولاً أزمة فكرة اعتبار الحياة ذاتها كدعوة.

لذلك من المهم تعلّم الإيمان من جديد، انطلاقًا من تعليم مسيحي إيماني أساسي. بكلماتٍ أبسط، نحتاج أمام خطر الجهل النفسي والروحي، إلى تعلّم قراءة وكتابة الإيمان، واتّخاذ القرار كمؤمنين في صليب المسيح مع بقائنا مؤمنين.

فلنحاول أن نرى كيف نحقق في الواقع مرافقة روحية تؤدي إلى هذا النوع من النمو والنضوج في فعل الإيمان.

كيف نميّز عمل اللّه؟

بعد أن حاولنا رؤية "مكان" ظهور الله الذي يعبّر فيه عن وجوده ويتحدّى المخلوق، نتوقف الآن عند الجانب الإنساني لفهم معنى جواب كلّ إنسان لله الذي يدعوه.

تعلّم القراءة

ونقصد به أولاً تعلّم قراءة الحياة الشخصية. وبصورةٍ أدقّ، فهم معناها المرتبط، بالنسبة للمسيحي، بحضور الله فيها. فحياة كلّ إنسان "تتضمن" ذلك الذي السماء والأرض لا يستطيعان احتواءه، ولذلك تُفسّر الحياة على ضوء هذا الحضور. ولا يمكن أن يوجد تفسيرٌ آخر إذا أُريد احترام الحياة في حقيقتها وتثمينها في جمالها.

قراءة لفهم المعنى "الموجود أساسًا"

يملك الإنسان فرصةً وحيدة ليجد معنىً لمغامرة حياته: قراءتها كأمرٍ أراده الله، وتفضيلها على عدم الوجود، اعتبارها كأمرٍ لن يزال الله يريده ويحبه ويحميه كشيء ثمين.

هناك إذًا معنى "موجود أساسًا" في وجودنا، متجذر في داخله، ربما ليس بصورةٍ مباشرة وقابلة للقراءة لأول وهلة، لكنه واقعي وغير قابل للشكّ في وجوده. في النهاية يمكن فقط "قراءة" ما "كُتِب" أساسًا، ما اكتسب موضوعيته، فيجب احترامه ولا يمكن تدميره، لا يمكن قراءة شيء من أجل شيء آخر!

في هذا الصدد، يعني الإرشاد الروحي جذب انتباه المؤمن إلى هذا المعنى "الموجود أساسًا" والوصول إليه، هو المبني على مضمون إيماننا: حبّ الآب لكل واحد منّا، نحن أبنائه. الحبّ الذي يؤسس وجودنا، يجعل الحياة هبة، ويجعلنا نحن ابناء الله المفضّلين، أي محبوبين من الأزل وإلى الأبد، بغضّ النظر عن استحقاقتنا أو عدم استحقاقنا، عن محبتنا وعدم محبتنا، من خلال سلسلة غير منقطعة من وسائط، أشخاص، وجوه، أسماء، لقاءات... نقول وسائط بشرية وبالتالي متّسمة بالمحدودية، ولكن يختفي وراءها هذا الحبّ الإلهي ومن خلالها يصل إلى كلّ مخلوق.

الكامل في غير الكامل، الكلّ في الجزء

سنتناول في هذه المرحلة الأولى، وهي مرحلة تمهيدية نابعة من عمق الإيمان، تعلّم تمييز الخير الكامن في المشروع الذي أراده الخالق لكل مخلوق، واكتشافه في صغر ومحدودية وجودنا واعتباره كسرّ لحبّ الله. إنّ اكتشاف شيءٍ كبير في بُعدٍ ضيّق، محدود وثقيل، ليس بالأمر الهين أو الواضح. نحن مدعوون بطبيعتنا لاكتشاف البعد الإلهي ليس في كلّ مكان، في كل ظرف، ولكن... "على المرتفعات"، كما يقول الكتاب المقدس، في أماكن مخصصة وغير ملوثة. يسهل علينا تعريفه في الكمال الإنساني، كما يقول المنطق الإنساني أو التدّين الطبيعي، في أقصى درجة من الإيجابية، في فعل البطولة لأحدٍ ما، وفي قداسة آخر، في الإيجابية التي بلا شائبة...

تعلّم قراءة الحياة كمؤمنين يعني الانفتاح على شريعة التجسّد، التي ذكرناها مسبقًا، قلبَ وثنيتنا المزعومة من جذورها ذات الطابع غير المسيحي، لنوافق أن يظهر الله في هشاشة الحياة البشرية، في وجودنا الشخصي. لا بل إنها هشاشة الوحي المسيحي أو جمال "البشرى السارة": يتحمّل الكاملُ المطلق أن يوحي بذاته من خلال غير الكامل، أي يصل حبّ الله العظيم لنا من خلال الفقر

والغموض والوسائط البشرية. لأن الكلّ يسكن في الجزء. كما أن رحم المرأة أحتوى يومًا ابن الآب، وجسدُ الإنسان غير الكامل كان وسيلة الاتصال بين الخالق والخليقة ومكان الظهور الإلهي.

تبنّي الخير

الإيمان بكلّ ما قلناه وتعلّم اكتشافه من خلال قراءة الحياة الشخصية، يعني "تبنّي الخير" (أو بمصطلح لاهوتي "قبول النعمة")، ولا نقصد به الحالات الإيجابية الكثيرة التي بالرغم من اختلاطها مع الحدود البشرية المحتومة، فإنها تملأ تاريخ كل شخص وتكشف بصورةٍ شفافة حضور الله وراءها (مثلاً امتلاك عائلة، عيش علاقة إيجابية مع أفراد العائلة...)، ولكنه خاصّةً الاعتراف بالامتنان تجاه الله والأشخاص الذين نقلوا محبته. لابدّ من تجاوز تجربة إعتبار الخير الذي نقتبله أمرًا طبيعيًا أو حقًا من حقوقنا، أو الاعتراف به فقط في بعض الأفعال، فلا نصل عندها إلى اليقين بأننا محبوبون (من الله والآخرين) أو سنبقى غير متأثرين أمام الحبّ الكبير الذي يأتينا بطرقٍ عدّة ومن أشخاص كثيرين، أو سنفقد صفاء النفس الذي يمتعنا بالعدد

الهائل من علامات المحبة... الاعتراف بالامتنان يعني أيضًا الوعي بعدم الاستحقاق، وأن هذا الحبّ خارج كلّ استحقاق أو حقّ، وهو وسيكون دومًا فائضًا، أقوى وأعظم مما يفعله أو يهبه الإنسان أو ما سيفعله أو سيهبه للحياة وللآخرين.

تعلّم قراءة الحياة يعني العثور على فيض الحبّ هذا في كلّ خطوة، وإدراك أننا لسنا وليد الصدفة ولا الفوضى بل تلك الإرادة الصالحة التي فضّلتنا على عدم الوجود لا زالت ترافق حياتنا في كل لحظة. إنّ المؤمن الذي يعرف أن يقرأ كتاب وجوده، يجد هذا الحبّ في بداية حياته بل في كل منعطف وكلّ سطرٍ منه، مثل معنى موجود أساسًا، زرعه الله في طيات الحياة اليومية. وإن كان لابدّ من قراءته أحيانًا "بين الأسطر"، فالمؤمن يعلم ويلاحظ أنّ هذا الحبّ أقوى من عدم الحبّ الحاضر أيضًا في حياته.

يقول رومانو كواردينى:

أنا... اقتبلتُ نفسي. في جوهر وجودي... لم أقرر وجودي بنفسي. وأوجدُ دون الحاجة إلى قرار وجود... ولكن

في جوهر وجودي هناك مبادرة، شخص ما، أعطى نفسي لي. وفي كل الاحوال أُعطيتُ كشخص فريد[٦].

ويعطي اللاهوتي هانس بلثازار صدى لكلماته بقوله:

... هناك أمرٌ حصري واحد: أني أعتبر وجودي أمرًا واضحًا، واجبًا وضروريًا... المهم الآن فقط أن حياتي الحميمية يتخللها الوعي بأنّ لا شيء مما أنا ومما يُعطى لي هو من حقّي، لا نظرة عين، ولا ابتسامة إنسان آخر، ولا حبّ ظروف، أشياء، أصدقاء، الخ. في كلّ ذلك هناك لحظة نعمة تتطلب وتحثّ فينا شكرًا عفويًا[٧].

إنّ هذه الملاحظة أساسية في موضوع الدعوة، لأنها نواة الدعوة. يوجد في داخلها معنى الحياة كنعمة مقبولة خارجًا عن كل استحقاق، وتميل بالضرورة لتصبح نعمةً ممنوحة. على أية حال، من المستحيل أن ينبثق هذا البُعد الثاني كخيار حياة (أي قرار العطاء بقدر الأخذ) إذا لم

---

[6] R. Guardini, *Accetare se stessi*, Morcelliana, Brescia 1970, p.13.

[7] H. U. Von Bathasar, *Pregare*, Piemme, Casale Monferrato 1989, pp.8-13.

وهي تضادد منظور حضارة الموت التي يذكرها بوضوح جان بول سارتر (الفيلسوف) وبحسبها كل وجود "يولد دون سبب، ويستمر بالضعف ويموت بالصدفة" (cit. In *Avvenire, 5/2/1999, 18*).

ينبثق أولاً الوعي بالامتنان والاعتراف بالخير الذي تقبله المؤمن واقعيًا وتاريخيًا، يملأ كلّ يوم من حياته ويفيض مما يعيشه.

تمرين الذاكرة المؤمنة: حياتي الشخصية كـ"مكان" للصلاة

من الضروري إذًا تمرين الذاكرة المؤمنة، المعلمة الأصيلة للعقل والقلب، ومثال لمن لا يرضى إلا بالذاكرة شديدة الوضوح التي لا تنسى شيئًا، أما هي فتعلّم صاحبها على نقل ما يتذكره وحياتها كلّها، ببطء إلى مركزه أو أصوله وجذوره، حيث يتمركز حبّ الخالق. وكأنها شمسٌ تدفئ بحرارتها القوية ("ولا شيء في مأمن من حرّها" مز ١٨/ ٧)، أو مغناطيسٌ مشحون بطاقة استثنائية يجذب كلّ شيء إليه ("وأنا إذا رُفعتُ من الأرض جذبتُ إليّ الناس أجمعين (وكلّ شيء)" يو ١٢/ ٣٢)، تعطي معنى لكلّ شيء، أو بالأحرى مصدر المعنى والحقيقة (به "سيرى" الجميع ذلك الذي طعنوا، زكريا ١٢/ ١٠).

تمرين الذاكرة المؤمنة يعني طرح هذا السؤال الذكي على كلّ حدث: ما معنى هذا الحدث في علاقته مع الحبّ

الذي في أصل وجودي؟ إذا كان هذا الحبّ في أصل وجودي، فيسمه دون إنكار، فكيف نكشفه في هذا الحدث؟ كيف ينير سرّ الحبّ، الذي فضّلني على عدم الوجود، هذا الحدث الآن وكيف يعطيه الحقيقة؟ أو ماذا يكشف لي هذا الحدث نفسه من حبّ الله لي؟

لا نقوم هنا بتذكّرٍ مجرّد، بل بتذكّرٍ في جوّ صلاة، فيها نشير عفويًا إلى فعل الآب الذي أرادني موجودًا ولا زال، وجعلني على صورة الابن، ولا زال يصيغني بحسب هذه الصورة. وكأن هذا التذكّر يصبح تدريجيًا مكانًا للصلاة التي تبحث عن حضور الله في حياتي، كسؤال دائم وأحيانًا متحمس وغير متيقن: "أين كنتَ يا ربّ في ذلك الحدث؟ ماذا كنت تقول لي وتعطيني؟".

يقرأ الجواب حياتي الإنسانية، ولكنه يعلّمني أن "أقرأ الله" وحضور حبّه الأبدي الذي دخل زمننا وأصبح تاريخًا إنسانيًا من خلال حدث وجودي. يمكننا أن نتخيّل فائدة القدرة على القراءة هذه في تشخيص فعل الإيمان وحقيقته بالنسبة للمؤمن، وليس فقط في موضوعيته، لأنها نوعًا ما "مثبتة" في حياته، وفقط عند هذه النقطة يصبح الخلاص حقيقيًا وتاريخًا شخصيًا. ولكن حقيقة الإيمان تُغنى بقيمةٍ اضافية وهي وجود المؤمن، المكان الذي اختاره الله ليقول

شيئًا عن نفسه بطريقة جديدة، مثل "حدث" الكتاب المقدس حيث فيه تكتمل الكلمة[٨]. عند هذه النقطة، يتعلّم المؤمن أن يقرأ ذاته في حقيقتها، يقرأ عالمه الداخلي، جدران وجوف قلبه... فيصبح بالتالي أكثر تفهمًا في استقباله للآخر، في قراءة علاقته معه، مع التاريخ، مع علامات الأزمنة، يرى ما لا يراه الآخرون ولا يسمعونه، أو ما يبقى مخفيًا عن شاردي الذهن والسطحيين. وهنا ينطبق بنجاح المبدأ القائل "الحياة تتكلم عندما يكون هناك قلبٌ يصغي".

في كل ذلك لا يدّعي أحد بوضوح تلقائي من ناحية المعنى والبديهية، أو بأجوبة مباشرة على الأسئلة التي أشرنا إليها أعلاه. التمرين الذي نقترحه هو نوعٌ من مشروع تقشف، يتطلب صبرًا وثباتًا، تواضعًا وقدرة على الانتظار، صلاة متواضعة وبسيطة[٩]. ولكنها مستنيرة بثقة السير في الطريق الصحيح، الطريق الذي نصحنا به الآب عندما تجسّد الابن. لذلك مثل هذه الصلاة محكومٌ عليها بالاستجابة.

---

[٨] وهو المفهوم الكتابي الشائع لكلمة "دابار" العبرية.

[٩] حول هذا التمرين راجع:

A. Cencini, *L'albero della vita. Verso un modello di formazione iniziale e permanente*, San Paolo, Cinisello Balsamo (MI) 2005, pp. 166-168.

علامات ومكونات قدرة قراءة الإيمان

من المفيد هنا للإرشاد الروحي معرفة بعض سمات قابلية القراءة عند المؤمن. نقترح بالترتيب أدناه سلسلة من ارشادات، نؤكد فيها جوانبًا ذكرناها مسبقًا مع شرح بسيط.

- ✓ معنى الإيمان يرتبط قبل كلّ شيء بالحياة، مثل إيمان اسرائيل الذي يتكوّن من تذكّر ما صنعه الله، من ذاكرة قادرة على حفظ أحداث الحياة بمجملها، وربطها مع بعضها وجمعها تحت معنى واحد.

- ✓ إيمان حياتي (كذلك الإيمان في الكتاب المقدس) يصبح إيمانًا شخصيًا أكثر، فيرسم وجهًا مميزًا لله يتّسم بأحداث حياة المؤمن الشخصية، وعند هذه النقطة يعطي المؤمن سببًا لرجائه ويصبح مقتنعًا في شهادته[١٠].

- ✓ مصالحة مع الماضي ومع الحاضر الذي يقود إلى معنى المحبة الجذرية والأساسية لاحترام الذات، ولكنها أيضًا مصالحة مع المستقبل من خلال اليقين بأن الله سيستمر غدًا بأن يكون أبًا وأمًا، حضورًا أمينًا وصديقًا، كما كان أمس واليوم.

---

[١٠] حول هذا النوع من الإيمان، أذكّر بكتابي: *L'albero della vita*, pp. 174-176.

- ✓ معنى للمفاجأة أمام النعمة المقبولة، أعلى مما يفكر المؤمن باستحقاقه، وتجعله قادرًا على الاندهاش أمام الجدّة المستمرة لحبّ وكلمة الله.

- ✓ امتنان عميق لتلك الإرادة الصالحة التي فضّلتنا على عدم الوجود وتملأ حياة من يثق بها بالخيرات، ولكنه امتنان أيضًا لتلك الوسائط البشرية التي عملت بصورةٍ غير واعية ومع محدوديتها كواسطة لهذا الحبّ.

- ✓ الانتباه إلى التفاصيل، إلى فعل الحبّ مهما كان صغيرًا، لأننا عندما ننطلق من افتراض عدم استحقاقنا، يصبح كلّ جزء من الخير مدهشًا، ونعترف به في الحد الأدنى مما يظهر[١١].

- ✓ المفاجأة مع الامتنان بالاضافة إلى الصفاء والأناقة في استقبال العلامات الصغيرة، تقود المؤمن إلى التأثر

[١١] يُقال في لغة علم النفس: عندما يكون مستوى الإدراك الحسي للخير لدى الانسان منخفض جدًا، فإنّه يظهر لدى وجود مؤثرات مطلوبة، فيصبح إنسانًا حساسًا للأفعال الصغيرة وقادرًا على ادراكها وتثمينها، وبعكسه الانسان الذي يملك مستوى أدراك حسي عالٍ، فهو يشعر بالخير في كلّ ما من حوله ويبقى غير مكتفٍ.

بنعمة الحياة، والشعور بأن الموت ليس السرّ الحقيقي بل الحياة، ليس لأننا لن نموت، بل لأننا أحياء.

- ✓ إن حسّ الدعوة، وإن كان لا يزال غامضًا، يعلّم بأنّ الحياة لابدّ أن تبقى نعمة ولا شيء غير ذلك.
- ✓ معنى الله، بتفاصيل وجهه، بعلامات عطفه، بسرّ حبّه الذي يمرّ بصرامة من خلال وجوه، أسماء، وقائع، خبرات الحياة الشخصية.

علامات الجهل الإيماني الطفولي أو غير القادر على القراءة

على العكس، الإيمان الجاهل أو "المتخلف"، الواقف عند البدايات إلى درجة لا يقدر فيها على القراءة:

- ✓ يملك موقفًا منفصلاً عن حياته، أو غير مبال تجاهها، فلا تستحق بالنسبة له أن تؤخذ بنظر الاعتبار، تُقابل بالاهتمام والرعاية، يُفحص سرّها، تُقرأ ويُعاد قراءتها في نقاطها الأقل وضوحًا، إلى حدّ الوصول إلى عدم مصالحة مع ما يعيشه، سواء في معنى عدم قبول

بعض أجزائه (أشخاص، وقائع، لحظات،...) أو إزالة جزء منه.

- ✓ ذاكرة قليلة أو عديمة الامتنان، تعتبر كلّ شيء طبيعيًا جدًا، وتحمّل صاحبها، مثل الطفل، إلى التشكّي أو المطالبة وليس إلى الامتنان المتأثر.

- ✓ مستوى إدراكه الحسّي للخير مرتفع جدًا، فيتذكر من خلاله العلامات الإيجابية لكيانٍ ما أو يعطيها وحدها الأهمية، أو يكون متصلبًا في قراءة حياته ليصل إلى عدم تقييم أفعال وعلامات المحبة حتّى تلك التي قام بها يومًا.

- ✓ غياب نداء الدعوة الذي ينبثق من الحياة، وعليه قد يقع في خطر عدم اعتبار منطق الحياة، الذي يتسم بطبيعته بالدعوة، كنعمةٍ مقبولة تميل بطبيعتها لتصبح نعمة ممنوحة.

- ✓ عدم القدرة خاصّةً على إدراك وجه وحبّ الله المختفي في طيات الحياة، أي هناك نوع من الشقّ الوثني بين الإيمان والحياة.

تعلّم الكتابة

إذا قرأنا، نجني المعنى الموجود أساسًا في وجودنا، أما إذا كتبنا فنحن نُعدّ شخصيًا معنىً ما وننسبه إلى حقيقة وجودنا. الكتابة رمزٌ لما ننسبه من معنى شخصي لوجودنا: بالتعليق على صفحة فارغة أو بالضغط على زر لوحة الحاسوب، يختصر المؤمن مسيرةً فكرية تنتهي بحقيقية معينة، يعطيها معنى نهائيًا ويختار كلمات دقيقة من بين كلمات عديدة ممكنة، ويفضّل صيغة تعبير دون أخرى، ويقارن نفسه مع ما كتبه فيظهر ذاته من خلاله. ولهذا الكتابة هي أرقى صيغة للتفكير، وربما لهذا السبب لا تعتبر نشاطًا ممتعًا.

إنّ الكتابة أرقى نوعيًا من القراءة، ولهذا تتطلب إشتراكًا أكبر من المؤمن، وتحدد نموه في الإيمان ونوعيته، وإن كانت متعبة نسبيًا. إنها تقريبًا السير من إيمان بدائي طفولي إلى إيمان شبابي وخلاّق.

كتابة تعطي معنى جديدًا

من المهم القول إنّ هذا المعنى المنسوب لوجودي الشخصي لابدّ أن يولد، في نهاية الأمر، من المعنى الموضوعي الموجود أساسًا (كما رأينا)، الذي يتحول إلى معنى ذاتي عندما يُطبق على ظروف اللحظة ويصل في كل حالة إلى نتيجة جديدة. فهو ينطلق من المعنى الموجود أساسًا ليعطي معنى جديدًا على حدثي الشخصي.

إننا نتناول الفعل "يكتب" هنا بمعناه الرمزي الذي يكمّل فعل "يقرأ"، أي يعطي صيغة نهاية وكاملة للتفكير الذي يؤدي بالنتيجة إلى صياغة معنى شخصي يُنسب إلى حقيقة وخبرات الماضي والحاضر. ولكننا نشير إلى فعل "كتب" كآلية كتابة أيضًا، كتمرين واقعي ومتواضع جدًا من الكتابة، يؤهل المؤمن تدريجيًا لينسب المعنى لحياته الشخصية. وهذا التمرين مهم جدًا من ناحية نضوج فعل الإيمان، لأننا اختبرناه في نشاط التعليم والتنشئة وفي إعادة التعليم والعلاج.

فن الكتابة المتواضع والمتعب

إن الكتابة، كنشاط فكري تتطلبه (وليس فقط فكريًا)، أكثر جاذبية من القراءة، تتطلب عملية معقدة تذهب إلى عمق الحقيقة لتظهر من خلال مسارات تحليلية متطلبة (من التأمل إلى التحليل، من الشكّ الذي لابدّ منه إلى النية التي لابدّ من اكتشافها). ولهذا تستخرج الكتابة معنى عميقًا مخفيًا، يذهب أبعد مما يُرى بالعين أو يمكن "قراءته" مباشرةً من المعنى "الموجود أساسًا". وخاصّةً عندما يبدو الحدثُ غامضًا وبغير معنى، أو يحمل معنى سلبيًا لا يمكن تبديله أو لا يعكس معنى الإيمان لا بل يبدو وكأنه يضاده، على الأقلّ في الظاهر.

من الضروري عدم الاكتفاء بقراءة شيء قدمته الحقيقة أو خبرة الآخرين أو الخبرة المعاشة مسبقًا أو الماضي الذي لا يتلاقى بطبيعته مع منظار الإيمان... بل يتطلب فعلاً شخصيًا أكثر. لابدّ هنا من تفعيل نشاط العقل والعاطفة للرقي بهما إلى الوضوح من جهة، ومن جهة أخرى للحصول بعمق أكثر على تفسير الحقيقة على مستوى الإنسان. بكلمات أخرى، لابدّ من تفعيل وظائف وديناميةالكتابة، فظروف الحياة تعلّمنا أنّ الكتابة هي الوسيلة الواقعية الوحيدة التي تجعلنا، بغض النظر عن التناقض

الغامض الناتج من الواقع، نكتشف تلك النقطة المضيئة للمنطق الذي يهيمن على كل شيء، تختفي وراءه يدٌ تقود كل شيء، يدٌ كبيرة وأمينة تحفظ وتحمي، تجرح وتشفي، تعطي قوة ورجاء، يدٌ يجد عليها الشاب اسمه ولقبه، تاريخه ودعوته، ماضيه ومستقبله، الحب والألم اللذين غذّا أيامه وأثارا لياليه...

تنسق الكتابة حاسّة التذكّر وتمرين الذاكرة المؤمنة، وتضع بعض الثوابت التي تتكرر دوريًا عبر أيام وفصول الحياة، وتجبر المؤمن على الوصول إلى نتائج دقيقة إذ تُري الكاتب أجزاء الحياة التي ما زالت محرومة من الإيمان وتنتظر معنى فصحيًا. كما أن الكتابة تبيّن بعض الروابط بين أجزاء الحياة ولكنها تغفل بعضها أيضًا، تسمح بالرجوع في الزمن إلى نيات واستنارات اكتسبها المؤمن في الماضي دون الوقوع في خطر نسيانها. وإن كان التركيز في أفكار معينة يعطي الشعور بالانتهاء من واجبنا تجاهها، فإنّ الكتابة تدفعنا إلى مراجعتها دومًا لتصحيحها وتدقيقها، تعميقها وابرازها، وكشف التدبير الإلهي فيها بصورةٍ واضحة ومقنعة١٢.

[12] A. Cencini, *L'albero della vita*, p. 177.

نقول مرةً أخرى: مَن يقبل القيام بهذا العمل المجهد غير الإنسان المتواضع والصبور، أي مَن يعلم بأنه لم يدرك إلى الآن معنى حياته بالملء (ولا موته) لأنه أمام سرّ لا يستعجل فهمه، بل له رجاء أنه يسير في الطريق الصحيح، ويشعر بأن لا خيار له سوى السير.

إذا كانت الكتابة هي أرقى صيغة للتفكير، فربما هي أيضًا تعبير عن "العقلانية الواسعة" التي يتكلم عنها غالبًا البابا بندكتس السادس عشر، كحليفة مهمة لفعل الإيمان.

كتابة "خلاصة في المسيح"

من وجهة نظر المحتوى، يُعتبر جهدُ الكتابة (لأن الجهد هو المقصود وخاصّةً في البدايات) ثمينًا ويعمل على تنمية الإيمان. لأنه يصبح تمرينًا على إعادة قراءة منظمة ومعمقة للحياة الشخصية، بالاضافة إلى إيجاد تفسيرات متوافقة مع سرّ فصح الربّ يسوع.

يشير القديس بولس بواقعية ودقّة إلى المقياس الذي يسمّيه "خلاصة" العالم، وكلّ شيء فيه من سماويين وأرضيين، في المسيح ودم صليبه، وهو ما نسميه نحن

اليوم "تبنّي". يشير المصطلحان إلى مسيرة يجمع فيها المؤمن كلّ وجوده ليكتشف معناه انطلاقًا من السرّ الفصحي، أو يعطي معنى فصحيًا حقيقيًا لكل ما يعيشه بروح آخر أو بموقف داخلي. بكلمات أخرى، لا نقصد أن يكتشف المعنى الموجود أساسًا، بل يعطي معنى جديدًا باستخدام حريته ومسؤوليته، فيصير المعنى شخصيًا جدًا.

إنه أمرٌ مثير، إذ يمكن بهذه الطريقة أن نعطي معنى جديدًا للماضي أيضًا، لما عشناه ربما بطريقة سيئة، لما رفضناه وابعدناه ونكرناه أو حمّلناه على ظهر الآخرين أو تحملناه وعانيناه لوحدنا... لأنه على مستوى الإيمان وعلم النفس، لا يوجدُ الماضي ولكنه يُعطى معنى جديدًا على ضوء سرّ صليب يسوع المغروس في قلب كل واقع كمنبع المعنى والنور والحقيقة وليس كمثل أي واقع آخر.

تبني الشرّ

لنكون أكثر دقة، فنحن نؤمن من جهة أنّ الإنسان حرٌ من ناحية قدرته على استعادة وجوده ليعطي معنى جديدًا للجزء المحروم منه أو لما اكتسب فيه معنى سلبيًا، أو لم يعشه جيدًا بطريقة ذكية وإيمانية. نؤمن أيضًا أن الإيمان

يسمح بهذه العملية على أعلى المستويات، ويضمن للمؤمن الناضج في نهايتها السيرَ نحو إيمان ناضج. إنْ لم يقم المؤمن بهذه العملية، يبقى إيمانه طفوليًا. كما أن الإيمان بدون رجاء، لا يدوم كثيرًا.

فإذا كان تعلّم القراءة يقود إلى اكتشاف الخير الموجود أساسًا في حياة كلٍ منّا، فإن تعلّم الكتابة يقودنا إلى اكتشاف الشرّ الذي ارتكبناه أو عانينا بسببه، أي من خطيئتنا إلى العنف الذي ابتلينا به، ونعطي هذا الشرّ معنى خلاصيًا، كما أضفى يسوع معنى على أكثر حدث معدوم المعنى يذكره التاريخ. سنرى كيف فعل ذلك.

تمرين الذاكرة الفصحية: أن نعطي معنى فصحيًا لما عشناه

إذا كان التمرين على القراءة، أو تمرين الذاكرة المؤمنة، يمثّل خطوة البداية في المسيرة نحو نضوج الإيمان، فإن التمرين على الكتابة الذي يعطي معنى فصحيًا لما يُعاش (أو "للذاكرة الفصحية")، يشكّل بدون شك خطوة مهمة وحاسمة نحو نضوج المؤمن.

نقترح في هذه المرحلة تمرينًا واقعيًا يركّز انتباه المؤمن على البحث في أحداث وجوده التي تصلح أغلبيتها أن تكوّن ذاكرةً لعمل الفداء الذي قام به يسوع من خلال آلامه وموته، وأسلوبه في اضفاء المعنى على كلّ ما يبدو تافهًا وظالمًا وشريرًا، والموجود في حياة كل إنسان ولم يعشه في وقته بهذا الروح وهذه الذاكرة.

إنّ الموضوع المميز لهذه المرحلة من التمرين هو الأحداث المتصلة بالشرّ، مع ما يرافقها من سلبية عانى منها صاحبها ولا زالت غير محلولة، كأن تكون عنفًا نفسيًا أو أخلاقيًا، افتراء، مرضًا خطرًا، صراعًا... وشرّ شخصي، من خلال خيانة خطيرة لا زال صاحبها يعيشها بشعور محزن من الذنب وليس كفرصة لاختبار الرحمة. لا ندّعي هنا بتغييرٍ مباشر في طريقة النظر لهذه الأجزاء من الحياة، بل البدء برؤية السرّ خلف الجروح الإنسانية وفي داخلها واسترجاع المعنى المخفي الذي فيها. وهو معنى يغيّر كليًا معنى هذه الجروح، ويحوّلها من ندوب مؤلمة تنزف إلى علامات فصحية وخلاصية.

لنقوم بتمرين الذاكرة الفصحية هذا في الواقع، من المفيد قراءة الكتاب المقدس كمفتاح لقراءة وكتابة حياتنا الشخصية، مقتنعين بأن وجودنا مصاغٌ في الجوهر وفقًا

لأحداث تاريخ اسرائيل، فيعيد منها لحظاتها المركزية وأكثرها واهمية (مثل الخلقة، التجربة، السقوط، التضحية بالابن، العبودية، البحر الأحمر، البرية، العهد، الوصايا العشر...)، التي تفسّر أحداث وجودنا، وكأنها عناوين فصول كتاب حياة كلّ مؤمن، أو كأن تاريخ الشعب المختار يصبح التاريخ الأم لوجود كلّ مؤمن[١٣].

إن تمرينًا من هذا النوع، وخاصّةً في هذه المرحلة، لا يتقدّم إلاّ في جوّ من الصلاة، ومن خلال نضوجٍ مصلّي، يتطلب معه وقتًا مخصصًا للتأمل في المصلوب، صلاة الطلب، الاعتراف بالمخاوف، قضاء الليالي، انتظارًا صبورًا للنور، طلبًا دقيقًا...

أي طلب؟

إنّ الطلب الذي يقدّمه المصلّي لله في هذه المرحلة، لا يبحث عن سبب وقوع هذه الأحداث أو دفع حسابها، ولا

---

[١٣] لاتمام عمل كتابة الحياة الشخصية بصورة صحيحة، من المهم تنشئة الذاكرة العاطفية والعقلية والمؤمنة، من خلال وسائل التفسير التالية (النفسية، العقلية والكتابية). وتختصر في الذاكرة الروحية أو ذاكرة الإنسان الروحي النابعة من الضمير الفصحي (راجع A. Cencini, *L'albero della vita*, pp. 193-235).

يرضى باكتشاف مكان اختفاء الربّ في تلك الظروف الصعبة، بل سيبحث عن صنع ذاكرة من لحظات الألم هذه من خلال تضحية يسوع – الابن الخادم والحَمَل، وسيتساءل كيف يعيش اليوم ليأخذ ذلك الحدث معنى ويصبح جزءًا من تاريخ خلاصه[١٤]. هذا النوع من الطلب نموذجيٌ للإنسان الناضج في الإيمان، إذ يتجاوز الإصرار الغاضب والمتمرد أحيانًا لمعرفة السبب، ويعيش من نضوج الإيمان الذي يعيشه بحرية ومسؤولية كبيرتين.

يصبح الاحتفالُ بالفداء الافخارستي أو المشاركة الواقعية فيه مركزيًا الآن، كلحظةٍ متميزة ومستنيرة بهذه القراءة والكتابة، كنداءٍ يومي لإعادة تضحية يسوع وعيش

---

[١٤] حول هذا الموضوع "اتي هلسوم" (وهي كاتبة هولندية من أصول يهودية، حُفظت مذكراتها ورسائلها بين الأعوام ١٩٤١–١٩٤٣ وتصف فيها الحياة في امستردام خلال الاحتلال الألماني – المترجم) تروي خبرتها الشخصية: "يدّعي الألم دومًا بمكانته وحقوقه بصيغةٍ أو بأخرى. ولكن ما يهمّ هو الطريقة التي تتحمله بها أو إن كنت قادرًا على تبنيه في حياتك وتقبله مثلما تقبل حياتك. لابدّ أحيانًا أن أحني رأسي تحت الثقل الذي أحمله على عنقي، وعندها سأشعر بالحاجة لأن أضع يديّ بحركة تلقائية، وسأقدر على الجلوس لساعات لأقول لنفسي: أعلم كل شيء، أنا قادرة على تحمّل كل شيء، أنا أفضل، وأنا متيقنة أيضًا أن الحياة رائعة وتستحق أن تُعاش وغنية بالمعنى" (E. Hillesum, *Diario 1941-1943*, Adelphi, Milano 2000. p. 137).

كلّ شيء "لذكره"، وهذا يعني أن ننسب المعنى كاملاً لحقيقة داخلنا، وبضمنها الشرّ[١٥]. فعل كلّ شيء "لذكره" هو الذاكرة الفصحية النموذجية.

يتحدد أكثر بهذه الطريقة مشروعُ تبنّي قيامة الربّ لتاريخي، فيصبح مترابطًا منطقيًا، كما سنرى، عندما اقرر أن أعطي حياتي لله المحبة وأدرك في الوقت ذاته أنني لا أقوم بعملٍ بطولي[١٦].

بعض الأمثلة

هناك طرقٌ عدّة لتبنّي الشرّ الذي ارتكبناه أو عانينا منه، ولدينا أمثلة عديدة لأشخاص تبنّوا على مهل أحداثًا

---

[١٥] راجع: A. Cencini, *L'albero della vita*, pp.149-150, 171-174.

[١٦] إنها الخبرة التي عشتها ولا زلت أعيشها منذ عقدين، وهي تكريس السنة الأخيرة من التحضير للنذور الدائمة (وللرسامة الكهنوتية) لقراءة وكتابة حياتي على ضوء نصوص كتابية ونفسية دقيقة، بهدف مرافقة الشاب في تقديم ذاته كفعل امتنانٍ لله بتواضع. إنها خبرة إيجابية جدًا أن يكشف الشاب عن نفسه وخاصّةً عن حضور الله في حياته.

مأسوية في حياتهم أو متّسمة بسلبيةٍ تبدو وكأنها لا تُمحى[١٧]. فلنرَ بعضها.

بولس

هناك مثلاً مَن يرى في خطيئته علامةً لضعفه تهينه وتذلّه فلا يريد تذكرها بل محوها من أصولها، لكنّه يرى فيها أيضًا اختبارًا لحنان الله الغني بالرحمة. أو هناك مَن مثل بولس، ينطلق من فكرة الادّعاء باقتلاع شرّه بقواه، ولكنه يُجبر فيما بعد على اختبار عجزه فيطلب من الله أن يتدخل ولكنه يخشى رفضه ("تكفيك نعمتي" ٢ كور ١٢/ ٩). يحصل بولس أكثر مما طلب، ويعيش الآن الاهتداء الحقيقي والعميق الذي بدأ على طريق دمشق: كان نرجسيًا لكنه اكتشف ضعفه كمكانٍ للنعمة يفتخر به ("عندما أكون ضعيفًا أكون قويًا" ٢ كور ١٢/ ١٠). إنه التبنّي الكامل للشرّ، إنه روعة بولس!

---

[١٧] راجع الحالات العديدة الواردة في:

A. Cencini, *L'albero della vita*, di don Luigi (pp. 181-183), del card. Bernardin (pp.291-293), di don Giorgio (pp. 300-303)...

سنأخذ بعض هذه الحالات باختصار الآن.

الأخت جينيروسا

يوجد أيضًا مَن مثل الأخت جينيروسا الأفريقية التي خسرت كلّ عائلتها في مجزرةٍ رهيبة وقعت بين قبائل، ولم تستطع أن تنعم بالسلام، فشعورُ الانتقام يهاجمها باستمرار والإحباطُ يجربها. من جهة، كأنها ماتت معهم في ذلك اليوم، ومن جهةٍ أخرى تشعر بالذنب لأنها لا زالت حيّة بفضل عدم وجودها في البيت ذلك اليوم. مع ذلك ساعدتها "قراءة" هذا الحدث المرعب على ضوء حبّ الله، وإن كان مختلطًا في البداية ولفترةٍ طويلة بصمت الله، ولكنها سمعت شيئًا فشيئًا هذا السؤال يراودها بوضوحٍ أكثر: "ماذا استحق عندما أكونُ إلى جانب من قُتِلوا وليس إلى جانب من قَتَلوا؟".

منذ تلك اللحظة شعرتْ أكثر، لا بل قررتْ، البقاءَ إلى جانب الضحايا مع يسوع الحَمَل البريء، واكتشفت فعّالية الألم عندما يتوّحد مع موت الحَمَل. وأدركت كم من المفيد على المدى البعيد الكون إلى جانب من قُتلوا بدلاً من الذين قتلوا، خاصّةً أن مَن يُقتل يعيش موته كإنسان يعطي حياته للآخرين بمشاعر وحرية وحبّ الابن الخادم.

"مَن يعلم؟"، تتساءل الأخت جينيروسا، "كيف عاشت عائلتي تلك اللحظات المرعبة! والآن جاء دوري لأقرر أن أعيش حياة أولئك الموتى بمشاعر ربّي الذي مات على الصليب لخلاص الإنسانية، وحتّى بمشاعر الذين قتلوا عائلتي". تشعر الأخت جينيروسا كلّ ذلك كامتياز لا تستحقه، كدعوةٍ لابدّ أن تشكر الله عليها، لأنها حفظتها من شرٍّ مرعب أسوأ بكثير، ولأنه دعاها الآن لتشهد بصورةٍ فعّالة لقيامة ربّها"[١٨].

لكي يتحوّل الشرُّ إلى خير، الموت إلى حياة، القاتلون إلى إخوة، لابدّ من الصلاة وتقدمة الذات لأجلهم لكي لا يستمرّوا في فعل الشرّ. وتتحول الأخت جينيروسا من شخصٍ متألم بسبب ماضٍ مرعب إلى مؤمنة ومكرّسة تشهد لجديد القيامة، الحدث الذي يحوّل كلّ أحزاننا إلى فرحٍ أبدي!

[١٨] راجع: A. Cencini, *L'albero della vita*, pp. 337-338.

القديسة بخيتا

وهنا مثلٌ آخر ذات مغزى لراهبة أفريقية أخرى اسمها بخيتا (من السودان)، اختُطِفت وهي صبية ثم بيعت أكثر من مرة لتجّار العبيد، وعانت من عنف جسدي وأخلاقي ونفسي كاد يصيبها بصدمات وجروح لا تمحى على المستوى النفسي. في النهاية، بخيتا (التي بسبب صدمة خطفها نَسَتْ اسمَها، وأخذت اسمها من أول خاطفيها ويعني "محظوظة") بيعت ثم أُطلِق سراحها من قبل القنصل الايطالي في السودان، فأتى بها إلى إيطاليا حيث عرفت الإيمان المسيحي وتكرست لله.

لا تعرف بخيتا الكتابة، وتتهجّى في القراءة، ولكنها تعرف "تقرأ وتكتب" بالمعنى الذي قصدناه أعلاه بهذه الأفعال. لها مقولة تشرحُ فيها كيف وضعت ذاتها أمام ماضيها الرهيب، فأعطته معنى جديدًا وغير مألوف:

إذا تعرفتُ يومًا على الذين خطفوني وعذبوني، سأنحني لأقبّل أياديهم، لأنه لو لم يحدث كلّ ذلك، لم أكن اليوم مسيحية وأعرف الله.

وهنا أيضًا، تنجح إنسانة غير مثقفة في فكّ رموز السرّ وتقبّل حبّ الله الأبدي ومشروعه الذي يشقّ الطريق بين

المتناقضات والطرق المتعوجة في الوجود ليعطي معنى وقيمة بحرية مطلقة لشيء كان يبدو بغير معنى، وحشي، لا بل قاتل.

فلنلاحظ جيدًا: بخيتا لا تغفر بسهولة لمَن فعل بها كلّ ذلك. لكنها تقوم بفعلٍ أكبر، إذ تنجح في تبني الشرّ بملئه، فيعطيها معنى جديدًا يحوّلها ويصيغها، لا بل تعيشه كبركة، بفضل النعمة التي حررتها لتعطي معنى إيجابيًا للغاية لماضٍ سلبي ورهيب.

وتبين لنا، مثل الأخت جينروسا، أنه ممكنٌ تبنّي ماضينا، وإن كان مأسويًا وصادمًا، فنعطي معنى القيامة لما ليس له معنى أو كان محتضرًا. لا بل يمكنك محبة من لا يحبّك، يمكنك تحمّل جروح العنف ولا تحمل حقدًا على من سبّبها لك، بل بالعكس تعبّر عن امتنانك لمن كان وسيطًا، وإن بغير نيته، لمشروع العناية الإلهية والمحبة[١٩].

في هذا الصدد، تكتب بخيتا "المحظوظة" قصّةً عن الله ليس لها مثيل.

[١٩] راجع: A. Cencini, *L'albero della vita*, pp. 333-336

الكردينال بيرناردين

وأخيرًا قصّة الكردينال بيرناردين، الرئيس السابق لمجلس أساقفة أمريكا الشمالية، الذي أُتهِم في السنين الأخيرة من حياته باعتداءاتٍ جنسية تعود إلى زمنٍ كان فيه معلمًا في المعهد الكهنوتي. يترك لنا بيرناردين شهادةً مكتوبة عن مسيرته البطيئة في تبني شرٍّ مدمّر مثل هذا الافتراء لشخصيةٍ هامّة مثله، كان افتراءً مدمّرًا مثل الصدمة التي ستقوده إلى الموت دون أن تزيل عن روحه نعمة السلام، كما يروي لنا في إحدى كتاباته الثمينة[٢٠]:

لم أشعر بالوحدة مثلما أشعر بها الآن... في كل سنواتي الخمسة والستين، هذه هي المرة الأولى التي أفهم فيها ألم سكرة الموت الذي اختبره يسوع ليلة آلامه في بستان الزيتون[٢١].

---

[٢٠] شهادة قدمها في الأسبوعين الأخيرين من حياته ومُختصرة في كتاب:
J. Bernardin, *Il dono della pace. Riflessioni personali del card. J. Bernardin* (a cura di P. Magagnotti), Queriniana, Brescia 2002.
ويؤكد كيف أن قراءة وكتابة الحياة عملية لا تنتهي، بل لابدّ أن تكتمل وتغتني حتّى آخر يوم من الحياة.

[21] J. Bernardin, *Il dono della pace*, p.51.

إنها طريقة تعيد المعنى لحدث عديم المعنى، فتجعله خبرةً فريدة ولحظةً يتعرّف فيها مع إلهه.

لكن هذه الخبرة ستكتسب تدريجيًا معنى أكبر، فتملأ فراغ حياته كمكرّس وراعٍ للأنفس. رأى الكردينال هذا الافتراء المخرِّب فرصةً ليكون راعيًا يقود القطيع، ليس فحسب، كما فعل في ذلك الوقت، بل ليكون حملاً بريئًا. ويقول إن هذه الخبرة كانت تنقصه، ولكنها كانت ضرورية وستعطي قوةً جديدة لشهادته كراعي.

وعندما بُرِّئ تمامًا من هذه التهمة، لم يحسبه انتصارًا مع أحد أو على أحد، بل كان همّه الوحيد هو البحث عن الشاب الذي اتهمه، الذي اعتبره...

الخروف الذي ضلّ وكنتُ أعلم كراعٍ بواجبي في البحث عنه... أدركتُ بعمق أن هذه القصة لن تكتمل لو لم أتبع دعوتي كراعٍ في الذهاب والبحث عنه... إن خبرة التهمة الباطلة لم تكن ستكتمل لو لم ألتقي بستيفن وأتصالح معه[٢٢].

كان سيخسر النهاية، في القلب وفي مشاعر تلميذ المسيح، ومسيرة التعارف مع ربّه. إنه يأخذ المبادرة ويذهب

[22] J. Bernardin, *Il dono della pace*, p.59.

ليس ليغفر بقدر ما يبين باسم الربّ لستيفن حنانَ ذلك الذي أعطى حياته له. وأعطاه كهدية الكتاب المقدس وكأسًا، شيئين مهمين يحملان معنى عميقًا في حياة الكاهن، ولكنهما يمثلّان في تلك اللحظة حياة الإنسان والمؤمن بأكملها، الحَمَل والراعي: الجسد المكسور والدم المهراق لإنسانٍ تطهر وتخلى عن ذاته بفضل ذلك الحادث الملعون (والآن ليس هو كذلك)[٢٣]، وأصبح حرًّا في قبول قوّة النعمة، ومستعدًا للاحتفال بالقيامة بعد أن مرّ بظلمات الجمعة العظيمة ووحدة السبت المقدس (سيموت بيرناردين بعد أن كتب هذه العبارات، وكأنها وصيته الروحية).

عند عودته إلى البيت ذلك المساء بعد اللقاء المحبّ للسلام، يلاحظ الكردينال:

... لم استطع إلاّ أن أتذكر عمل الراعي الصالح: يبحث ليرجع للحظيرة مَن كان ضائعًا لفترةٍ قصيرة[٢٤].

---

[٢٣] "خلال تلك الأشهر التي أفرغتني أكثر من الماضي، هكذا استطاع الله أن يخترقني" (J. Bernardin, *Il dono della pace*, p.75).

[24] J. Bernardin, *Il dono della pace*, p.66.

إنّها أكبر فرحة في حياة كاهن، ولكنها تمرّ من خلال الحرية وتبنّي المعاناة التي تبدو من المستحيل تحمّلها، ولكنها تتحول في النهاية إلى بركة[٢٥].

علامات القدرة على "كتابة" الإيمان

من يعرف "الكتابة" بالعموم، يصل إلى مستوى معين من الثبات في موقفه من الحياة، سواء على المستوى الإنساني أو خاصّةً على مستوى الإيمان ونضوجه. وهذه بعض العلامات الاضافية لهذا النضوج.

على المستوى الروحي:

- ✓ تبني أكثر للحياة وليس مجرّد قبول له (ولا مجرّد تسليم سلبي)، بل كعملية مستمرة لا تنتهي، تكافح دومًا لتكتشف وتعيد اكتشاف حضور الله في قروح الماضي، بعد أن يتعلم منها الفرد طريقة التعبير عنها.

---

[٢٥] راجع:

A. Cencini, *Il respiro della vita. La grazia della formazione permanente*, Cinisello Balsamo (MI) 2003, pp. 199-203.

- ✓ تفسير للإيمان بأنّه مرتبط دومًا بالحياة الشخصية، وقادر أن يعطي معنى حّتى لما يبدو سلبيًا.

- ✓ علاقة حميمة مع ما يقوله الكتاب المقدس، فيعيد عيشه بطريقةٍ أصيلة في أحدث الحياة، ويعيد اكتشافه كلّ يوم كمنبع لهويته.

على الصعيد النفسي، ليس فحسب:

- ✓ الثقة الكاملة بالإيجابية التي في داخلي التي لا تستند فقط على أمان الخير والحبّ الذي أتقبله، بل على قدرتي لأكون موضوع وجودي ومفسّره الأصلي، وأعطي المعنى لما يسمّيه الآخرون "قدرًا"، وقد يكون قدرًا قاسيًا ومعاديًا.

- ✓ تفسير صحيح للحرية، لأن الإنسان حرّ مع هذه القراءة والكتابة حتّى في قَلبِ معنى بعض الأحداث.

- ✓ صفاء كبير وعميق مع إدراك الوحدة والتناغم لما يُعيشه، وفيه يرى الإنسان بإبداع دعوته كموجهٍ أخير له.

- ✓ نضوج في الحكم وفي اكتشاف معنى الأحداث التي تحيط به ولا تمسّه بصورةٍ مباشرة، أي أحداث التاريخ

المدني والدنيوي، دون غضّ النظر عن المشاركة أو المسؤولية الشخصية فيها، أو قراءة ما نسميه "علامات الأزمنة" من خلال منطق العناية الإلهية.

علامات جهل المراهقين أو غير القادرين على الكتابة

يعرف الكثير من المؤمنين اليوم القراءة فقط، ولم يتعلموا قطّ كتابة إيمانهم انطلاقًا من حياتهم التي عاشوها، أو كتابة حياتهم من وجهة نظر إيمانهم. هؤلاء الجهّال يُظهرون هذه العلامات:

- ✓ رفض القيام بهذا العمل أو الخوف من جهد القيام بتأمل منهجي يشتركون فيه.
- ✓ قراءة وكتابة جمل سطحية تقود إلى أماكن عامة، ولا تصل أبدًا إلى الحقيقة في شموليتها.
- ✓ العجز عن الخروج من المشاعر أو الرغبة الحادّة والمخفية في الانتقام أو العدوانية، من أمراض تصيب الذاكرة (ذاكرة مهانة، غاضبة، متذمرة، غير مسؤولة، لا

أبالية، قصيرة، مزاجية، جاحدة، مكتئبة، مقفلة، منتقمة،...)[٢٦].

- ✓ تفسير مراهق للإيمان وللحياة، اتكالي وتكراري، وأحيانًا انتقامي ورنّان.
- ✓ العجز عن استثمار وظيفة الشرّ وتحويله إلى وسيلة ومناسبة للخير.
- ✓ الميل إلى بدء الحياة من جديد وتحمّل عواقب الماضي (إلقاء الذنب على الماضي ذاته أو...)، أو تبني طرق هجومية من خلال مبدأ القضاء والقدر ("لا يوجد شيء يمكن فعله") بدلاً من اتّخاذ موقف ناضج وحرّ ومسؤول تجاهه.

تعلّم القرار

الهدف النهائي من حديثنا هو مساعدة الشاب، الذي ترافقه طرقُ الروح، ليكون شاهدًا للقيامة والرجاء، ويعيش دعوته في العالم بالإضافة إلى الكنيسة. وهذا ما تقوم به

[٢٦] حول فايروسات الذاكرة راجع: Cencini, *L'albero della vita*, pp. 180-192.

كنيسة إيطاليا بحسب الرسالة التي أرسلها المؤتمر الكنسي الرابع في فيرونا.

ولهذا السبب عرّفنا الارشاد الروحي كتمرين للقدرة على "قراءة" و"كتابة" الحياة، لأننا مقتنعون أن المرافقة في طرق الروح، وخاصّةً مرافقة الدعوة، لابدّ أن تقوم جوهريًا على هذا. كيف يكتشف الإنسانُ عمل الله ودعوته ما لم يتعلم تفسير الحياة من حوله أولاً؟ ستنبثق من هذه القراءة والكتابة دعوة كلّ واحد، وسيشعر الجميع بأنهم مدعوون ليعيشوا دعوتهم بأسلوبٍ شخصي وفريد في الإيمان.

ستظهر عندها دعوات عدّة، أو أفضّل القول إنّ كل مؤمن سيشعر ذاته أولاً كمدعو، للحياة الزوجية أو ليشهد لأولوية الله في اختصاص عمله مهما كان نوعه، ليشير إلى مركزية الله ومشروعه الخلاصي لكل إنسان في الحياة الاجتماعية أو في تحمّل المسؤولية العامة والسياسية[٢٧]، ولكنه يشير أيضًا إلى جمال الله في التعابير الفنية متعددة

[٢٧] ربما تعتبر أزمة الدعوات للعمل في الحقل السياسي والعيش كمؤمن أخطر أزمة حالية في العالم المسيحي، مع ما تحمله من نتائج ثقيلة تقع تحت أنظار الجميع. هل هناك سياسي يعيش اليوم مسؤوليته الإدارية بوعي وبناءً على دعوةٍ محددة؟

الأوجه، وبدون شكّ ستظهر أيضًا دعوات إلى الحياة الكهنوتية والرهبانية.

ما هي خطوات قراءة وكتابة الحياة في اختيار دعوتي كإعلان للقيامة والرجاء؟ ما هي المواقف التي يجب اتّخاذها لكي يعبر الشاب المؤمن من القراءة والكتابة إلى طرق الواقع، أي إلى القرار المناسب المترتب عليه؟

الإنسان المسؤول

القارئ والكاتب الأصيل لحياته يصل إلى الشعور بالمسؤولية أكثر أمام الله والآخرين وذاته. فماذا تعني مسؤولية؟ سنعطي إجابة وافية ومنظمة بحسب هذه الثلاثية:

المسؤول هو الإنسان القادر على الإصغاء أو الكائن العلائقي القادر على مواجهة السؤال الذي يوجهه له كل حدث من الحياة، ولا يقف أمامها كمشاهد ومستهلك، بل يشعر أنه مدعو من الحياة ومن ضميره، من النداء الظاهر والمستتر الذي يأتي من الآخر، من وجه الإنسان الوسيط العجيب لوجه الله، وجه المصلوب والقائم.

نموّ الإنسان في المسؤولية يعني قدرته على الجواب "الناضج"، لا يفوّض أحدًا بالاجابة بدلاً عنه لأنه المسؤول الوحيد الذي يخاطر في اتّخاذ موقفٍ بحرية أمام أي ظرف، حتّى إنْ بدا صعبًا ولا يترك مجالاً للهروب منه (مثل صراعات، أمراض، حوادث متنوعة...)، أو ما يجعله يدفع ثمنًا غاليًا.

الإنسان الذي يعيش ملء المسؤولية هو من "يطيع" بجوابه ما يربطه بالحياة وبالآخرين وبالله، ما يجعل حياته وشخصه نعمة مقبولة ويقرر أن يحولها إلى نعمة ممنوحة، أي يشحن نفسه بمسؤولية الحياة والآخر.

باختصار، المسؤولية هي:

أ. القدرة على "قراءة" (على الإصغاء المطيع) الحياة والآخرين (والله).

ب. القدرة على "كتابة" جواب شخصي وحاسم على متطلبات الحياة.

ت. الشجاعة في اختيار "مسؤولية" المشاكل التي من حوله، من الحياة والآخرين (أمام الله) وما يترتب عليها من قرار.

إذا كانت المسؤولية بهذا المعنى، يمكننا القول إن أزمة الدعوات اليوم هي بالدرجة الأولى أزمة مسؤولية. الدعوة بحدّ ذاتها قبول مسؤولية. بكلمات أخرى، أزمة الدعوات علامة لمسيحية منغلقة في جوهرها على ذاتها، تهتمّ بذاتها وبحاجة المستهلك للخلاص، إن صحّ التعبير، أو تهتمّ بالشؤون حتّى الروحية للمسيحي غير المخلَّص لأنه لا يزال منطويًا على نفسه. أو قام بقراءة فقيرة جدًا لحياته وعجز عن التأثر بالحبّ الذي تقبله ولم يتحمّل مسؤولية الحياة والآخرين.

إن النعمة وإدراكها يخلقان المسؤولية، ولا شيء آخر غير إدراك أننا محبوبون يولّد المسؤولية. ولهذا السبب ينكر كثيرون عطف الآخرين أو يعتبرونه طبيعيًا فلا يندهشون به بحرية، أو يضخمون محدودية الأشخاص القريبين من حياتهم... لأنهم "يدركون بدون وعي" (وهذا واقعي وليس مجرّد تناقض في المصطلحات) الربط بين الحبّ والمسؤولية.

أمّا إذا أحبطت المسؤولية أحدًا من غير الناضجين طبعًا، فإنه يمكن أن يجذب كثيرين آخرين على درجة من النضوج الداخلي أو لا زالوا يسيرون في اتجاه هذا النضوج. بكلماتٍ أخرى، ستنتهي طريقة تعلّم المسؤولية والدعوة

بجذب أشخاص "صالحين" لها وليس "نصف مقتنعين" (من أناس منغلقين على أنفسهم إلى أناس لا يعرفون التعب، من أنانيين إلى معطائين، من نصف مكتئبين إلى أناسٍ يحنون...) كما يحدث أحيانًا اليوم، عندما تضعف راعوية الدعوات أو الحياة الراعوية بصورة عامة، وتصبح غير غير مؤثرة أو متناقضة، فتجذب في النهاية أناسًا غير مدعوين ولا يجب أن يدخلوا في مسيرة تنشئة معينة.

ضمير الدعوة

إنّ المرافقة الروحية الحقيقية للدعوة لابدّ أن تحثّ الشاب المؤمن لأقصى حدّ. لا ليعيش أمام العالم وشروره فحسب، فيشعر في داخله كأنه بطل، بل أيضًا ليشعل نار هذه المسؤولية كواجب منطقي ملقى على عاتقه. من تعلّم قراءة وكتابة حياته كتاريخ خلاص، هو وحده يدرك الأمور بهذه الطريقة ويفهم قصد نيكولاس برديائيف.

إن الكاتب الروسي بردیائیف يعتبر حياة البشر حدثًا أو سلسلةً من أحداث وقصص حياة، محصورة بين سؤالين يطرحهما الله على الإنسان. بل يتصور أن نهاية تاريخ الإنسانية يتسم بتدخلين من الله يبدوان متساويين، ولكنهما

موجّهان لمتحاورين مختلفين. السؤال الأول موجّه لقايين الأخ الذي يجسّد الشرّ لينتقم من هابيل الضحية البريئة، كما يروي الكتاب المقدس وكما يبدو منطقيًا بالنسبة لنا.

ينكر قايين أنه يعرف شيئًا عن أخيه، أو أنّه "حارس" لأخيه (راجع تكوين ٤/ ٩)، وعندما يتلفظ بهذه الكلمات يقتل هابيل ليس بضربةٍ على رأسه، بل بإنكار مسؤوليته عن أخيه أمام أب الجميع، فيذكّر الجميع أن إنكار مسؤوليتنا عن الآخر يقتله. في نهاية التاريخ سيُوجّه سؤالُ قايين ذاته وبصورة غير متوقعة لهابيل، وهذا يفاجئنا كثيرًا بالرغم من منطقه بالنسبة لفكر برديائيف. إذ يعتقد أن ضمير الإنسان الأخلاقي ينطلق من سؤال التوبيخ الموجّه لقايين والمعبّر عن الشرّ، ولكنه سيتحقق بالملء أو يصبح ناضجًا عندما يحاسب الضمير ذاته بذات التهمة الموجهة لهابيل، ... هذا السؤال جزءٌ أساسي منّا: "هابيل، ماذا فعلت بأخيك قايين؟"[٢٨].

---

[28] N. berdiaev, *De la destination de l'homme. Essai d'Ethique paradoxale*, l'Age d'Homme, Lausanne 1979, p.356.

ويقول أيضًا: "واجبنا الأخلاقي هو التخفيف عن الألم، سواء عن المجرم أو عن أكبر خاطئ، ألسنا كلنا في النهاية مجرمين وخطأة؟" (p. 251).

ليس الضمير الأخلاقي فحسب، بل حتّى ضمير الدعوة يبدأ من هذه النقطة، عندما يواجه المؤمن هذه التهمة، ويفهم عندها أنه لن يفكر في حياته من بعد كأنها له، ويحمّله الله مسؤولية شرّ العالم. وأعتقد أن كليهما، الضمير الأخلاقي وضمير الدعوة، عضوان لضمير فصحي يملكه من تحرر بالنعمة من أنانيته (حتى الروحية) من خلال صليب المسيح. ضمير من لا يعتبر الخير اعتباطيًا، في عالمٍ يبدو فيه الخير والشرّ متعارضين بشدّة (والشرّ أو مملكة الشرّ تُعرّف بحضور الآخر الشرير)، ولكنه يتولى المسؤولية بفضل الخلاص الذي تقبله (وليس بالادّعاء بالبطولة أو الوقاحة)، أمام الشرّ الموجود ويقرر أن يجيب عنّه ليس بشرٍّ آخر، بل من خلال حيوية الخير المضادّة والجديدة، المختلفة، المعقولة، العادلة، المسالمة، الخفيفة... التي تجعل فعلَ التهجم فرصةً لتؤكد ما يعارضه فتستطيع عندها تحويله[٢٩].

[٢٩] يعلّق ارميس رونكي (كاهن ولاهوتي إيطالي من رهبنة خدّام مريم – المترجم)، وهو يتخيل حلاً لهذه المسألة: "سيظهر هابيل ليس في الانتقام بل من خلال حماية قايين. ستصير الأرض جديدة عندما سيعتني الضحايا بالجلادين حتّى يغيروا قلوبهم. كل ما فينا وحولنا يقول: اهرب من قايين! ابتعد عنه! ثم يأتي يسوع ليقول: أحبّوا أعداءكم، تقرّبوا منهم. فيقلب الخوف إلى حماية محبّة. عندما سيتجرأ هابيل أن يقترب من قاتله،

إنّ مسيرة وسرّ الدعوة المسيحية تكمن في هذا التحويل. فالدعوة المسيحية مرتبطة حصريًا مع هذا الضمير، ثمرة تآلف المؤمن مع سرّ الصليب. وهذا ما يخدم التكريس لله اليوم، أي أن نكون مسيحيين جذريًا اليوم، فهذا سيقودنا إلى تولّي مسؤولية الشرّ والألم في العالم. هذا ما يفكّر به كثيرون ومنهم لابيرا[٣٠]، شارل دي فوكو، الرهبان الفرنسيين الذين قُتلوا في الجزائر من قبل متطرفين إسلاميين، مؤمنون معروفون ومجهولون عرفوا كيف يفسّرون العلاقة مع زمننا الذي يعتبره كثيرون زمنًا خاسرًا وطامسًا في ثقافة الموت[٣١]، الموت[٣١]، مع بقاء الرجاء بمَن تعلّم التعرف على طرق الله

سيكون ملكوت الله حقًا قريبًا من قلب كلّ إنسان... الإنجيل من الله وليس من الإنسان، إنه الإنجيل المستحيل" (E. Ronchi, *L'amore? Gioca gratis e d'anticipo*, in *Avvenire*, 24/5/2002).

[٣٠] سياسي إيطالي، من الإخوّة العلمانية في رهبنة الدومنيكان والفرنسيسكان (المترجم).

[٣١] بعد أحداث ١١ سبتمبر، باومان (عالم اجتماع بولندي، وواحد من أكبر كتّاب نظريات علم الاجتماع – المترجم) تخيّل عالمنا كطائرة بدون طيار. عندما يكتشف المسافرون مرعوبين أن مقصورة الطيار فارغة ولا توجد طريقة لتشغيل الطائرة اوتوماتيكيًا. لا يعرفون أين تتوجه الطائرة، أين ستهبط، من سيختار المطار، أو إن كانت هناك قواعد تسمح للمسافرين بالوصول بأمان.

في أحداث الحياة، فيرى هذا العالم بمحبة دون أن يتفوق عليها، وبشجاعة وحرية لقول كلمات الحقيقة.

إن العالم وحضارة الموت المزيفة بحاجة إلى الحقيقة، بالرغم من المظاهر، ولكنها كلمات الحقيقة يقولها فقط من يعيش داخل هذا العالم ويشكّل جزءًا لا يتجزأ منه، من يشعر بمسؤوليته ويعانق قضيته، من يعاني مشاكل العالم والمحيط والمنطقة التي يعيش فيها، ذات المكان الذي لا زال ابنُ الله يتجسد فيه ليعطي الخلاص.

هذا هو فقط المؤمن الذي يشعّ الرجاء، الذي "يسحب أو يجذب مستقبل الله إلى حاضر العالم"، كما يؤكد مولتمان[٣٢]، أو يستخدمه كمقياس لقراراته "الممكن المستحيل المستحيل عند الله" (برونو فورتي[٣٣])، مراهنًا على الإنسان. هذا الإنسان الذي هو "رجاء الله" (موريس زندل[٣٤]).

---

[٣٢] لاهوتي إصلاحي ألماني (المترجم).

[٣٣] كردينال في الكنيسة الكاثوليكية، لاهوتي إيطالي (المترجم).

[٣٤] لاهوتي سويسري (المترجم).

معيار قرار الدعوة

إذا أردنا الإشارة بدقّة أكثر إلى معيار قرار المؤمن، الذي يتعلّم اختيار دعوته بصورة صحيحة وببطء وبوضوح من خلال حدث يسوع – الابن الخادم الحَمَل، الذي حمل على أكتافه ثقل الإنسانية الخاطئة ونزع عنها الحكم غير القابل للنقض وعقاب الموت الناتج عنه.

يقول معلّم الحياة الروحية، الأب رانييرو كانتالاميسا[٣٥]، بهذا الخصوص:

بعد خطيئة (أبوينا الأولين)، تُقاس العظمة الحقيقية للكائن البشري بتحمّل أقلّ ما يمكن من الذنب وأكثر ما يمكن من عقاب الخطيئة ذاتها، أي في عدم ارتكاب الشرّ ومع ذلك قبول نتائجه. هذا هو نوع المعاناة الذي يقرّب من الله. الله وحده إذا تألم، فإنه يتألم كبريء"[٣٦].

عندما يصبح هذا الموقف معيارًا للقرار، سيكون لدينا مؤمن دخل في العالم وتعلّم تمييز عمل الله في حياته،

---

[٣٥] كاهن إيطالي كاثوليكي، عمل كواعظ للرياضات الروحية للكوريا الرومانية منذ عام ١٩٨٠ (المترجم).

[36] R. Cantalemessa, *Il mistero del Natale*, Ancora, Milano 1999.

وأعطى جوابًا كاملاً وناضجًا على دعوته. وكيف يسلك الله في التاريخ إن لم يخلق في قلب المؤمنين طاعة الابن وحرية الخادم التي بها قدّم يسوع جسده لخلاص الإنسانية، ومنح قوّته وشجاعته كحملٍ بريء فلم يجاوب الشرّ بالشرّ؟

تمرين يومي: التمييز المطيع والمتفائل

بعد تثبيت هذه الوعود، يُدعى المؤمن في مسيرة المرافقة الروحية إلى تمرين آخر وهو عدم تطبيق معيار القرار هذا على الاختيارات الكبرى فقط، بل على كل لحظة من الحياة. عندها يسهلُ الاختيار في الحياة المسيحية، عندما يقود المؤمن الحياة كلّها في الاتجاه ذاته. عندما يوجّه كلّ أجزائه (جسده، عقله، قوته، شعوره، ضميره، نبضات قلبه...) نحو ذلك الجزء، ويقترب العقل لا بل يخترق بعمق في سرّ الخلاص الذي يعمل في تاريخ البشر، ويأخذ له مكانًا فيه ويكمّله اليوم، ويعطي قوة لإرادة الاختيار لتكمل هذا الدور واقعيًا حتّى النهاية.

إن هذا التمرين نموذجي للمؤمن الواقعي المطيع الذي يبحث في كلّ حدث عن الله وعن العلامات الغامضة لحضوره، يسمع ويلتقي في كل شخص وعلاقة كلمةَ الله،

ويلاحظ في كل حضارة وتعبير إنساني سرًّا يستحق الاهتمام والاحترام ولا يتحمّل تفسيرات ضيقة، ويشعر في كل لحظة من وجوده أنه أمام الله الذي يحتضنه وفي بحث لا يتوقف عن وجهه.

هذا الموقف المطيع هو قمة الرجاء، كما تذكر جوان كتستر[٣٧]:

إن الرجاء لا يعني أن ننتظر تحوّل الأشياء الخارجة عنّا إلى حالةٍ أفضل، بل يعني أن نخلق في داخلنا علاقة أفضل مع ما يحدث لنا، يعني الانفتاح على الله الذي يأتي بكل ما هو جديد، يعني الموافقة على ترك هموم اليوم للإيمان بمستقبل لا نراه بل نوكله إلى الله.

ونضيف نحن أن الرجاء يعني الاستمرار في إعلان مسيحية ناضجة لأناس ناضجين، يقبلون مسؤولية الحياة، لأن المسيحية لا تدلل أحدًا بل تحثّ على الاعتراف بأنّ الحياة تحمّل مسؤولية على كلّ إنسان ليتحمّل مسؤولية الآخر. وإن كانت هذه الرسالة تتعارض مع الثقافة الحالية التي تتسم باللأبالية وبالابتعاد عن الآخر، فتقتل الرجاء ببطء وتجعل الجميع مكتئبين.

---

[٣٧] راهبة بندكتية كاتبة وخطيبة (المترجم).

الاختيار المسيحي

لن نتبع في هاتين الفقرتين الأخيرتين، الطريقة السابقة التي قارّنا فيها علامات النضوج مع عدمه في القدرة على كتابة الحياة الشخصية، بل سنقوم بطريقة أخرى. سنقارن بين نوعين أساسيين من القرار: المسيحي والإنساني "فقط"، أي القرار المفتوح على الله والآخر المفتقر للبعد المتسامي.

- بالنسبة للمؤمن، ترسخ القدرة على القرار أسسها في الثقة، ثقته بنفسه وبالآخر، في اليوم وفي الغد، وهي أهمّ جوانب ونتائج فضيلة الرجاء اللاهوتية. إن موقف الثقة علامة، وفي الوقت ذاته، نقطة أساسية في المرافقة الروحية.

- الرجاء اللاهوتي والعامل هو ثقة قوية لا تُحسب، متواضع وواثق في وعد الله الذي جاء ويجيء للقائنا. من هذه الثقة تُشتق نتيجتان مهمتان للغاية: الأولى تفاؤل عميق نموذجي للمؤمن لأنه مرتبط بيقين تدخل الله من جهة وبالقدرة والحرية على اتخاذ القرار دون انتظار أن تكون الأمور واضحة، ذات مصداقية، قابلة للتنبؤ، مضمونة، منتصرة في منظورها... أما الثانية فهي قبول بعض الغموض. أعتقد أن اختيار مريم

العذراء في لحظة البشارة يمثّل تمامًا هذا الموقف العميق مع الحرية الذي يعنيها.

- إن القرار المسيحي دقيق، ولكنه ليس واضحًا أبدًا في تفاصيله، فلا يضع صاحبة بمأوى عن أي مفاجأة. وحتّى قرار الدعوة، التي لا تُدرك إلاّ شيئًا فشيئًا، يكشف في كلّ خطوة حاجاتٍ جديدة ويطلب بالتالي استعدادًا لاختيار جديد بدوافعٍ متجددة. لذلك يدور الحديث في التنشئة الدائمة عن اختيار البدايات الذي لا يمكن أن يبقى على حاله، بل لابدّ أن يُدرس بصورة مستمرة ويُعاد من جديد.

- يمكننا القول أيضًا إن القرار المسيحي خطر، لأنه يبقى بطبيعته مكانًا لعدم الاستقرار الفكري والأخلاقي، ويمكن تجاوزه فقط بالجرأة والمخاطرة. وهذا يعني أن نقطة ارتكاز القرار المسيحي ليست القدرة الذاتية أو الشخص ذاته، بل قدرة شخص آخر هو الله. وبطرس هو مثال هذا الاختيار الأصيل للمؤمن، بعد فشله في الصيد ليلاً، توقع القيام بشيء غير معقول بالنسبة لمنطق مهنته (وربما قاله بصورةٍ سيئة): يقرر إلقاء الشبكة "على كلمتك" (لوقا ٥/ ٥).

- القرار المسيحي النموذجي مكلفٌ جدًا، إذ يفضّل المؤمن ذلك الفعل على أفعالٍ أخرى، لأنّه يعبّر عن الحبّ وهبة الذات ويطلب ثمنًا عاليًا، لأنّ المهمّ فقط يمكن فعله بحبٍ كبير أو بدافعٍ قوي[٣٨].

- القرار المسيحي يعطي مكانًا للآخر، مثل مَن يسمح للآخر بالدخول في حياته، ولا يقلق بشدّة على عنايته بذاته من جهة، ومن جهةٍ أخرى يدرك بحرية أن فكرة وجود الآخر أفضل من فكرة وجوده. ولذلك ينفتح على منظار الدعوة، فـ"أن يعرف ذاته من خلال الدعوة، يعني أن يستعدّ للجواب على لغز (الحياة) في وسط غياب اليقين، ويترك ذاته تتوجّه بالثقة نحو من دعاها. الشعور بالدعوة يعني القبول بأنك لست أنت من تقول أول كلمة. كلمتك أجيبت سابقًا. إنك من الآن في مستوى يأخذ بالاعتبار خصوصيتك الوجودية. لست لوحدك: هذا هي الدعوة"[٣٩].

---

[٣٨] حول سمات القرار المسيحي في منظور الدعوة، راجع:
A. Cencini, *Vangelo giovane 2. Compendio di animazione giovanile e vocazionale*, Rogate, Roma 2005, pp. 13-44.

[39] G. Scarafile, *La vita che si cerca*, Effatà (TO), Cantalupa 2005, p. 26.

وبالإشارة إلى موضوعنا، قدرة المؤمن على القرار في حياته هو ما يجعله يدرك عمل الله السرّي بدقة في الحياة ذاتها، إنه عمل – حضور لا يُدرك أبدًا بالدرس، بل مَن عاش في العمق دعوته وقرأها وكتبها على بشرته.

الاختيار الإنساني (فقط)

يمكننا إعادة العناصر التي رأيناها لتوّنا ونقلبها بالعكس. على عكس الاختيار الذي يوحي بذاته في الإيمان، لابدّ للقرار الإنساني أن يطيع هذه المطاليب:

- أن يكون اختيارًا مضمونًا، فتُخفف العناصر الخطرة وتُضاف فائدة نفسية للشخص. بالمختصر، لابدّ للاختيار أن يربح تقدير الذات واعتبار الآخرين لها، ولذلك لابدّ أن يشعر به الشخص بنفسه، أو يشعر بالاستعداد لأجل اتّخاذه (ولأجله سيختار فقط ما يضمن فعله، حتى تصبح الحياة تكرارًا لنفسها).

- لابدّ أن يكون أيضًا اختيارًا بأقلّ تكلفة، أي ستفضل الذات ذلك القرار الذي يوصلها إلى الهدف بفعالية

قصوى وبأقلّ الخسائر. باختصار، إنه اختيار لا جهد فيه، ولا يخسر المرء فيه شيئًا من مصالحه الذاتية.

- أخيرًا، لابدّ أن يكون اختيارًا دقيقًا وواضحًا، ومنتبهًا فلا يترك شيئًا للصدفة أو الفجأة، ليلغي أي احتمال للفشل.

هذا النوع من الاختيار أو من نزعة القرار يخفي موقفًا ضعيفًا أو فقيرًا، محتاجًا للانتباه والدفاع عن الذات، نابعًا من شخص خائف أمام الاختيارات وغير مستعد للمخاطرة بالاختيارات، فيميل بالتالي إلى اختصارها أقلّ ما يمكن. إنه شخص يخسر الحياة والدعوة. سيفشل في اكتشاف عمل الله في الحياة التي تدعو كلّ شخص لتحمّل المسؤولية.

طوبى لذلك الشخص، بالعودة إلى صورة برديائيف، الذي يجيب الله في يوم الدينونة بأنه اعتنى بالآخر وحرس الأخ، حتّى قايين! ذلك الشخص حقق دعوته بالملء.

فهرست

مقدمة المترجم	٣
تقديم	٤
مقدمة	١٠
أين يسكنُ الله؟	١٢
"إلهُ حياتي"	١٢
الموضوعية والذاتية	١٥
الماضي والمستقبل	١٨
الكساح الانثروبولوجي وأزمة الدعوات	٢١
كيف نميّز عمل الله؟	٢٦
تعلّم القراءة	٢٦
قراءة لفهم المعنى "الموجود أساسًا"	٢٦
الكامل في غير الكامل، الكل في الجزء	٢٨
تبني الخير	٢٩
تمرين الذاكرة المؤمنة: حياتي الشخصية كـ"مكان" للصلاة	٣٢
علامات ومكونات قدرة قراءة الإيمان	٣٥
علامات الجهل الإيماني الطفولي أو غير القادر على القراءة	٣٧
تعلّم الكتابة	٣٩
كتابة تعطي معنى جديدًا	٤٠

فن الكتابة المتواضع والمتعب ٤١
كتابة "خلاصة في المسيح" ٤٣
تبني الشرّ ٤٤
تمرين الذاكرة الفصحية: أن نعطي معنى فصحيًا لما عشناه ٤٥
بعض الأمثلة ٤٩
علامات القدرة على "كتابة" الإيمان ٥٨
علامات جهل المراهقين أو غير القادرين على الكتابة ٦٠
تعلّم القرار ٦١
الإنسان المسؤول ٦٣
ضمير الدعوة ٦٦
معيار قرار الدعوة ٧١
تمرين يومي: التمييز المطيع والمتفائل ٧٢
الاختيار المسيحي ٧٤
الاختيار الإنساني (فقط) ٧٧